سورة النبأ

١ ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة النبأ) لوقوع كلمة (النَّبَأ) في أولها.

وسميت في بعض المصاحف، وفي صحيح البخاري، وفي تفسير ابن عطية، والكشاف (سورة عم يتساءلون).

وفي تفسير القرطبي سماها (سورة عم) أي بدون زيادة (يَتَسَاءَلُونَ) تسمية لها بأول جملة فيها.

وتسمى (سورة التساؤل) لوقوع (يَتَسَاءَلُونَ) في أولها.

وتسمى (سورة المعصرات) لقوله ـ تعالى ـ فيها: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾.

فهذه خمسة أسماء، واقتصر الإتقان على أربعة أسماء: عم، والنبأ، والتساؤل، والمعصرات.

وهي مكية بالاتفاق، وعدت السورة الثمانين في ترتيب نزول السور عند جابر ابن زيد، نزلت بعد سورة المعارج، وقبل سورة النازعات.

وفي ما روي عن ابن عباس والحسن ما يقتضي أن هذه السورة نزلت في أول البعث، روي عن ابن عباس: «كانت قريش تجلس لما نزل القرآن، فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق، ومنهم المكذب به؛ فنزلت: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾.

وعن الحسن لما بعث النبيﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني الخبر العظيم.

وعدَّ آيَها أصحابُ العدد من أهل المدينة والشام والبصرة أربعين، وعدَّها أهلُ مكة وأهل الكوفة إحدى وأربعين آية. ٥/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت هذه السورة على وصفِ خوضِ المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثباتُ البعث، وسؤالُ بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهدُيدهم على استهزائهم.

وفيها إقامةُ الحجةِ على إمكان البعثِ بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصفُ الأهوالِ الحاصلةِ عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

وصفةُ يوم الحشر؛ إنذاراً للذين جحدوا به، والإيماءُ إلى أنهم يعاقبون بعذابٍ قريبٍ قبل عذابِ يومِ البعث.

وأدمج في ذلك أن علم الله ـتعالى ـ محيطٌ بكل شيء، ومن جملة الأشياء أعمالُ الناس. ٦/٣٠

٣ـ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾.

افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم ـ افتتاح تشويق، ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة؛ لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف، ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تَمكُّن.

وإذ كان هذا الافتتاح مؤذناً بعظيمِ أمرٍ كان مؤذناً بالتصدي لقولٍ فَصْلٍ فيه.

ولَمَّا كان في ذلك إشعارُ بأهمِّ ما فيه خوضهم يومئذ ـ يُجْعَلُ افتتاحُ الكلام به من براعة الاستهلال. ٦/٣٠

٤ـ **ولفظ ﴿عَمَّ﴾**: مركب من كلمتين هما حرف (عن) الجار، و(ما) التي هي اسم استفهام بمعنى: أيُّ شيءٍ، ويتعلق ﴿عَمَّ﴾ بفعل ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ فهذا مركب.

وأصل ترتيبه: يتساءلون عن ما، فقدم اسم الاستفهام؛ لأنه لا يقع إلا في صدر الكلام المستفهم به، وإذ قد كان اسم الاستفهام مقترناً بحرف الجر الذي تعدى به الفعل إلى اسم الاستفهام، وكان الحرف لا ينفصل عن مجروره ـ قُدِّما معاً؛ فصار عما يتساءلون.

وقد جرى الاستعمال الفصيح على أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يحذف الألف المختومة هي به؛ تفرقة بينها وبين (ما) الموصولة. ٧/٣٠

٥ـ **والنبأ**: الخبر، قيل مطلقاً؛ فيكون مرادفاً للفظ الخبر، وهو الذي جرى عليه إطلاق القاموس والصحاح واللسان.

وقال الراغب: «النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، ويكون صادقاً» اهـ.

وهذا فرق حسن، ولا أحسب البلغاء جروا إلا على نحو ما قال الراغب؛ فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة نبأ، وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ النبأ في كلام البلغاء.

وأحسب أن الذين أطلقوا مرادفة النبأ للخبر راعوا ما يقع في بعض كلام الناس من تسامح بإطلاق النبأ بمعنى مطلق الخبر؛ لضرب من التأويل، أو المجاز المرسل

بالإطلاق والتقييد؛ فكثر ذلك في الكلام كثرة عَسُرَ معها تحديدُ مواقع الكلمتين.

ولكن أبلغ الكلام لا يليق تخريجه إلا على أدقِّ مواقع الاستعمال. ٣٠/٩ـ١٠

٦ـ ووصف ﴿ النَّبَإِ ﴾ بـ﴿ الْعَظِيمِ ﴾ **هنا** زيادةٌ في التنويه به؛ لأن كونه وارداً من عالم الغيب زاده عِظَم أوصافٍ وأهوال، فوصفُ النبأ بالعظيم باعتبار ما وصف فيه من أحوال البعث في ما نزل من آيات القرآن قبل هذا، ونظيره قوله ـتعالىـ: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ في سورة ص. ٣٠/١٠

٧ـ **ومناسبة ذكر الجبال** دعا إليها ذِكْرُ الأرض، وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت؛ فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية، فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت؛ تخييلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده.

وأيضاً فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهاداً؛ فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مُستَمْلحاً بمنزلة حسن الاعتذار؛ فيجوز أن تكون الجبال مُشَبَّهةً بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل كقولهم: رأيت أُسوداً غابها الرماح.

ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح، أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمةٌ لتعديل سَبْح الأرض في الكرة الهوائية؛ إذ نتوُّ الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تَكْسِرُ تيارَ الكرةِ الهوائية المحيطة بالأرض؛ فيعتدل تياره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة.

على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمة في الجبال؛ فمنها

مسايل الأودية، وقرارات المياه في سفوحها، ومراعي أنعامهم، ومستعصمهم في الخوف، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العدو؛ ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض. ١٥/٣٠

٨ـ **والمعنى من جعل الليل لباساً** يحوم حول وصف حالة خاصة بالليل عبر عنها باللباس.

فيجوز أن يكون اللباس محمولاً على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه، أي ما يلبسه الإنسان من الثياب؛ فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ، أي جعلنا الليل للإنسان كاللباس له، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية.

وتحته ثلاثة معان: **أحدها**: أن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس؛ فالإنسان في الليل يختلي بشؤونه التي لا يرتكبها في النهار؛ لأنه لا يحب أن تراها الأبصار.

وفي ذلك تعريض بإبطال أصل من أصول الدهريين أن الليل ربُّ الظلمة وهو معتقد المجوس، وهم الذين يعتقدون أن المخلوقات كلها مصنوعة من أصلين أي إلهين: إله النور وهو صانع الخير، وإله الظلمة وهو صانع الشر، ويقال لهم: الثنوية؛ لأنهم أثبتوا إلهين اثنين، وهم فرق مختلفة المذاهب في تقرير كيفية حدوث العالم عن ذينك الأصلين، وأشهر هذه الفرق فرقة تسمى المانوية نسبة إلى رجل يقال له (ماني) فارسي قبل الإسلام، وفرقة تسمى مزدكية نسبة إلى رجل يقال له (مزدك) فارسي قبل الإسلام.

وقد أخذ أبو الطيب معنى هذا التعريض في قوله:

وكم لظلام الليل عندك من يد تُخَبِّرُ أن المانويَّةَ تكذب

المعنى الثاني من معنيي وجه الشبه باللباس: أنه المشابهة في الرفق باللابس، والملاءمة لراحته؛ فلما كان الليل راحة للإنسان، وكان محيطاً بجميع حواسه وأعصابه ـ شُبِّه باللباس في ذلك.

ونُسِب مُجْمَلُ هذا المعنى إلى سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة؛ إذ فسروا ﴿ سُبَاتاً ﴾ : سكناً.

المعنى الثالث: أن وجه الشبه باللباس هو الوقاية، فالليل يقي الإنسان من الأخطار والاعتداء عليه؛ فكان العرب لا يُغْير بعضهم على بعض في الليل، وإنما تقع الغارة صباحاً؛ ولذلك إذا غِيْرَ عليهم يصرخ الرجل بقومه بقوله: يا صباحاه، ويقال: صَبَّحَهُمُ العدو.

وكانوا إذا أقاموا حرساً على الربى ناظُورة على ما عسى أن يطرقهم من الأعداء يقيمونه نهاراً، فإذا أظلم الليل نزل الحرس، كما قال لبيد يذكر ذلك، ويذكر فرسه:

حتى إذا ألقت يداً في كافر	**وأجن عورات الثغور ظلامها**
أسْهَلتُ وانْتَصَبَتْ كجذع منيفة	**جرداء يَحْصَر دونها جُرَّامُها**

٣٠/٢٠ـ٢١

٩ـ ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾.

لما ذكر خلق نظام الليل قوبل بذكر خلق نظام النهار، فالنهار: الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشرا على جزء كبير من الكرة الأرضية.

وفيه عبرة بدقة الصنع وإحكامه؛ إذ جعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس، واحتجابه فوق الأرض، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب

والآثار؛ فنعمةُ الليل راجعة إلى الراحة والهدوء، ونِعْمَةُ النهار راجعة إلى العمل والسعي؛ لأن النهار يُعْقِبُ الليل؛ فيكون الإنسان قد استجد راحته، واستعاد نشاطه، ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق.

ولما كان معظم العمل في النهار لأجل المعاش أخبر عن النهار بأنه معاش، وقد أشعر ذِكْرُ النهار بعد ذِكْرِ كلٍّ من النوم والليل بملاحظة أن النهار ابتداءُ وقت اليقظة التي هي ضد النوم؛ فصارت مقابلتهما بالنهار في تقدير: وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشاً، ففي الكلام اكتفاءً دلت عليه المقابلة، وبذلك حصل بين الجمل الثلاث مطابقتان من المحسنات البديعة لفظاً وضِمْناً. ٢١/٣٠

١٠ ـ وقوله: ﴿لا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾: نفي لرجائهم وقوع الجزاء.

والرجاء أشْتُهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيراً لهم حتى يُجْعَلَ نَفْيُ ترقُّبه من قبيل نفي الرجاء؛ فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه؛ فيظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء ـ أن الله لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم، تلقى المسلمون ذلك بالمسرة، وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون؛ فكانوا مترقبين يوم الحساب تَرَقُّبَ رجاءٍ، فَنَفْيُ رجاءِ يوم الحساب عن المشركين جامعٌ بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه، وبكنايته رجاءَ المؤمنين وُقُوعَه بطريقة الكناية التعريضية؛ تعريضاً بالمسلمين، وهي ـ أيضاً ـ تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء.

ومن المفسرين من فسر: ﴿يَرْجُونَ﴾ بمعنى: يخافون، وهو تفسير بحاصل المعنى، وليس تفسيراً للفظ. ٣٩/٣٠

١١ ـ **والكواعب**: جمع كاعب، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة

سنة ونحوها.

ووصفت بكاعب؛ لأنها تَكَعَّبَ ثدْيُها، أي صار كالكعب، أي استدار ونتأ، يقال: كعبت من باب قعد، ويقال: كعبت بتشديد العين.

ولما كان كاعبٌ وصفاً خاصاً بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث، وجُمِعَ على فواعل.

والأتراب: جمع تِرْب بكسر فسكون: هو المساوي غيره في السن، وأكثر ما يطلق على الإناث.

قيل: هو مشتق من التراب؛ فقيل: لأنه حين يولد يقع على التراب مثل الآخر، أو لأن التِرْب ينشأ مع لِدَته في سن الصبا يلعب بالتراب.

وقيل: مشتق من الترائب؛ تشبيهاً في التساوي بالترائب وهي ضلوع الصدر؛ فإنها متساوية.

وتقدم الأتراب في قوله ـتعالىـ: ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ في الواقعة؛ فيجوز أن يكون وصفهن بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن، أي لا تفوت واحدة منهن غيرها، أي فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل منها إلى الأخرى؛ فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل.

ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن؛ لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا؛ لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين، وذلك أحلى المعاشرة. ٣٠/٤٤ـ٤٥

١٢ـ **والكأس**: إناءٌ معدٌّ لشرب الخمر، وهو اسم مؤنث تكون من زجاج ومن فضة ومن ذهب، وربما ذُكِر في كتب اللغة أن الكأس الزجاجة فيها

الشراب، ولم أقف على أن لها شكلاً معيناً يميزها عن القَدَحِ وعن الكوب وعن الكوز، ولم أجد في قواميس اللغة التعريف بالكأس بأنها: إناء الخمر، وأنها الإناء ما دام فيه الشراب.

وهذا يقتضي أنها لا تختص بصنف من الآنية.

وقد يطلقون على الخمر اسم الكأس، وأريد بالكأس الجنس؛ إذ المعنى وأكؤساً.

وعدل عن صيغة الجمع؛ لأن كأساً بالإفراد أخفُّ من أكؤس وكؤوس، ولأن هذا المركب جرى مجرى المثل ـ كما سيأتي ـ.

ودهاق: اسم مصدر دهق من باب جعل، أو اسم مصدر أدهق، ولكونه في الأصل مصدراً لم يقترن بعلامة تأنيث.

والدهق والإدهاق مَلءُ الإناء من كثرة ما صُبَّ فيه.

ووصف الكأس بالدهق من إطلاق المصدر على المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق فإن الكأس مدهقة لا داهقة.

ومركب (كأس دهاق) يجري مجرى المثل، قال عكرمة: قال ابن عباس: «سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقاً».

ولذلك أفرد ﴿كَأْساً﴾ ومعناه مملوءة خمراً، أي دون تقتير؛ لأن الخمر كانت عزيزة، فلا يكيل الحانُويُّ للشارب إلا بمقدار؛ فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسرَّ للشارب. ٣٠/٤٥

١٣ـ وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً﴾: المقصود منها أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذيان، وكذب وسباب.

واللغوُ والكذبُ من العيوب التي تعرض لمن تَدِبُّ الخمرُ في رؤوسهم، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قبل تحريم الخمر، ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا.

وكان العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، قال عمارة بن الوليد:

ولسنا بَشَربٍ أمَّ عمرو إذا انتشوا ... ثياب الندامى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أمَّ عمرو نديمنا ... بمنزلة الريان ليس بعائم

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

٤٦_٤٥/٣٠

١٤ـ وجملة ﴿ **وَقَالَ صَوَاباً** ﴾: يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول، أي وقد قال المأذون له في الكلام صواباً، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله.

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أي وإلا من قال صواباً، فعلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذن له.

وفعل ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ مستعمل في معنى المضارع، أي ويقول صواباً، فعبر عنه بالماضي؛ لإفادة تحقق ذلك، أي في علم الله.

وإطلاق صفة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته؛ لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار. ٥٣/٣٠

سورة النازعات

١ـ سميت في المصاحف وأكثر التفاسير (سورة النازعات) بإضافة سورة إلى النازعات بدون واو، جعل لفظ (النَّازِعَاتِ) علماً عليها، لأنه لم يذكر في غيرها.

وعنونت في كتاب التفسير من صحيح البخاري وفي كثير من كتب المفسرين بسورة (وَالنَّازِعَاتِ) بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها.

وقال سعد الله الشهير بسعدي والخفاجي: إنها تسمى (سورة الساهرة) لوقوع لفظ (السَّاهِرَةِ) في أثنائها ولم يقع في غيرها من السور.

وقالا: تسمى سورة الطامة ـأي لوقوع لفظ الطامة فيها، ولم يقع في غيرهاـ ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم.

ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنون اسمها (سورة فالمدبرات) وهو غريب؛ لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها.

وهي مكية بالاتفاق، وهي معدودة الحادية والثمانين في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار.

وعَدَدُ آيها خمسٌ وأربعون عند الجمهور، وعدها أهل الكوفة ستاً وأربعين آية. ٥٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت على إثباتِ البعث والجزاء، وإبطال إحالةِ المشركين وقوعَه، وتهويلِ يومِه، وما يعتري الناس حينئذ من الهول[1] وإبطالِ قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

---

١ ـ في الأصل: الوهل، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

وعَرَّض بأن نُكْرَانَهم إياه مُنْبَعِثٌ عن طغيانهم؛ فكان الطغيان صاداً لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء، فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياةً بعد هذه الحياة الدنيا بأن جَعَلَ مَثَلَ طغيانِهم كطغيان فرعونَ وإعراضِه عن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وإن لهم في ذلك عبرةً، وتسليةً لرسول الله ﷺ.

وانعطف الكلامُ إلى الاستدلال على إمكان البعث بأنَّ خَلْقَ العوالم، وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.

وأُدمج في ذلك إلْفاتٌ إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ.

وأُدمج فيه امتنانٌ في خلق هذا العالمِ من فوائدَ يَجْتنونها، وأنه إذا حل عالمُ الآخرة، وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاءُ على الأعمالِ بالعقاب والثواب.

وكُشِف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه، وجَعْلِهمْ ذلك أمارةً على انتفائه؛ فلذلك يسألون الرسول ﷺ عن تعيين وقت الساعة سؤالَ تَعَنُّتٍ، وأن شأن الرسول أن يذكِّرهم بها، وليس شأنه تعيينَ إبَّانها، وأنها يوشك أن تَحلَّ؛ فيعلمونها عياناً، وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءاً من النهار. ٣٠/٥٩ـ٦٠

٣ـ وجاء في آخر القصة بحوصلة وفَذْلَكَةٍ لما تقدم فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ فهو في معنى البيان لمضمون جملة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ الآيات.

والإشارة بقوله: ﴿فِي ذَلِكَ﴾ إلى: ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾.

والعبرة: الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها أو عاقبة أمثالها.

وهي مشتقة من العَبْر، وهو الانتقال من ضفّة واد أو نهر إلى ضفته الأخرى. والمراد بالعبرة هنا الموعظة. ٣٠/٨٢

٤ـ **وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش** من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون، وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل؛ فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة. ٣٠/٨٢

٥ـ **وإضافة (ضحى) إلى ضمير (العشية)** جرى على استعمال عربي شائع في كلامهم، قال الفراء: «أضيف الضحى إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب يقولون: آتيك الغداة أو عشيتها، وآتيك العشية أو غداتها، وأنشدني بعض بني عقيل:

نحن صبحنا عامراً في دارها ... جُرْداً تَعادى طرفي نهارها

عشيةَ الهلال أو سِرارها

أراد عشية الهلال، أو عشية سرار العشية؛ فهو أشد من: «آتيك الغداة أو عشيتها» اهـ.

ومُسوِّغُ الإضافة أن الضحى أسبق من العشية؛ إذ لا تقع عشية إلا بعد مرور ضحىً، فصار ضحى ذلك اليوم يعرف بالإضافة إلى عشية اليوم؛ لأن العشية أقرب إلى علم الناس؛ لأنهم يكونون في العشية بعد أن كانوا في الضحى؛ فالعشية أقرب والضحى أسبق.

وفي هذه الإضافة ـأيضاًـ رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾. ٣٠/٩٨ـ٩٩

سورة عبس

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة عبس).

وفي أحكام ابن العربي عنونها: (سورة ابن أم مكتوم) ولم أر هذا لغيره.

وقال الخفاجي: تسمى (سورة الصاخة) وقال العيني في شرح صحيح البخاري: تسمى (سورة السفرة) وتسمى سورة (الأعمى).

وكلٌّ ذلك تسميةٌ بألفاظٍ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور، أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها.

ولم يذكرها صاحبُ الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس.

وهي مكية بالاتفاق، وقال في العارضة: «لم يحقق العلماء تعيين النازل بمكة من النازل بالمدينة في الجملة ولا يحقق وقت إسلام ابن أم مكتوم» اهـ.

وهو مخالف لاتفاق أهل التفسير على أنها مكية؛ فلا مُحَصَّل لكلام ابن العربي.

وعدت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة والنجم، وقبل سورة القدر.

وعدد آيها عند العادين من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الكوفة اثنتان وأربعون، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون وعند أهل الشام أربعون.

وهي أولى السور من أواسط المفصل.

وسبب نزولها يأتي ذكره عند قوله ـتعالىـ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾. ١٠١/٣٠

٢ـ **أغراضُها**: تعليمُ رسول اللهﷺ الموازنة بين مراتب المصالح، ووجوب الاستقراء لِخَفِيَّاتها؛ كي لا يُفيتَ الاهتمامُ بالمهمِّ منها في بادئ الرأي مُهمّاً آخرَ مساوياً في الأهمية أو أرجح؛ ولذلك يقول علماء أصول الفقه: إن على المجتهد أن يبحث عن معارضِ الدليل الذي لاح له.

والإشارةُ إلى اختلافِ الحالِ بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تَتَبُّع مواقعه.

وقُرِنَ ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين، وسموِّ درجتهم عند الله ـ تعالى ـ.

والثناءِ على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

وانْتُقِلَ من ذلك إلى وصف شِدَةِ الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبيﷺ عن الالتفاتِ إلى رغبة ابن أُمِّ مكتوم.

والاستدلالُ على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضورِ ابنِ أُمِّ مكتوم، وذلك كان من أعظم ما عُني به القرآن من حيث إن إنكارَ البعثِ هو الأصلُ الأصيلُ في تصميم المشركين على وجوب الإعراضِ عن دعوة القرآن؛ توهماً منهم بأنه يدعو إلى المحال؛ فاسْتَدَلَّ عليهم بالخَلْقِ الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة.

وأُعْقِبَ الاستدلالُ بالإنذار بحلول الساعة، والتحذيرِ من أهوالها، وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين.

والتذكيرُ بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

والتنويهُ بضعفاء المؤمنين، وعلوِّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم، والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم

أحرياء بالتحقير والذم، وأنهم أصحاب الكفر والفجور. ١٠٢/٣٠

٣ـ **وعبّر عن ابن أم مكتوم بـ﴿الأَعْمَى﴾** ترقيقاً للنبي ﷺ ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضَرارة؛ فهو أجدر بالعناية به؛ لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره. ١٠٤/٣٠

٤ـ ويظهر أن النبي ﷺ رجا من ذلك المجلس أن يُسلموا؛ فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم؛ فكان دخول ابن أم مكتوم قطعاً لسلك الحديث، وجعل يقول للنبي ﷺ: يا رسول الله استدنني، علمني، أرشدني، ويناديه، ويكثر النداء والإلحاح؛ فظهرت الكراهية في وجه الرسول ﷺ لعله لقطعه عليه كلامه، وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون، وفي رواية الطبري أنه أستقرأ النبي ﷺ آية من القرآن. ١٠٥/٣٠

٥ـ **والحاصل** أن الله ـتعالى ـ أعلم رسوله ﷺ أن ذلك المشرك الذي مَحَضَهُ نُصْحَه لا يرجى منه صلاح، وأن ذلك المؤمن الذي استبقى العناية به إلى وقت آخر يزداد صلاحاً تفيد المبادرة به؛ لأنه في حالة تلهفه على التلقي من رسول الله ﷺ أشد استعداداً منه في حين آخر.

فهذه الحادثة منوالٌ ينسج عليها الاجتهاد النبوي إذا لم يرد له الوحي؛ ليعلم أن من وراء الظواهر خبايا، وأن القرائن قد تستر الحقائق. ١١١/٣٠

٦ـ **فإن قال قائل**: فلماذا لم يُعلم الله رسوله ﷺ من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم؟

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبيُّن غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تَعَطُّش؛ ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر

بين المسلمين، وليحصل للنبي ﷺ مَزِيّةُ كِلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يُعلم الله رسوله ﷺ بهذا المهيع من عليِّ الاجتهاد؛ لتكون نفسه غير غافلة عن مثله، وليتأسى به علماء أمته، وحكامها، وولاة أمورها.

١١٢/٣٠

٧ـ هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلاً وتفصيلاً، وهو بناء على أساس ما سبق إليه المفسرون مِنْ جعلهم مناط العتاب مجموعَ ما في القصة من الإعراض عن إرشاد ابن أم مكتوم، ومن العبوس له، والتولي عنه، ومن التصدي القوي لدعوة المشرك والإقبال عليه.

والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي تؤتيه لهجة الآية والذي روي عن النبي ﷺ ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم: «**مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله**» إنما هو عتاب على العبوس والتولي، لا على ما حف بذلك من المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد؛ لأن ما سلكه النبي ﷺ في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي عتاباً؛ إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم؛ لأن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يسلم، وإرشاد مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

وليس في حال المؤمن ما يُفِيْتُ إيماناً، وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما يُنَاكِد زيادة صلاحه؛ فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام.

ومن القواعد المستقراة من تصاريف الشريعة، والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، ونفي الضر الأكبر قبل نفي الضر

الأصغر، فلم يسلك النبيﷺ إلا مسلك الاجتهاد المأمور به فيما لم يوح إليه فيه. ٣٠/١١٢ـ١١٣

٨ـ ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾: وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز، وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حد المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها؛ فهي من جوامع الكلم القرآنية. ٣٠/١٢١

٩ـ «والأبُّ»: بفتح الهمزة وتشديد الباء: الكلأ الذي ترعاه الأنعام، روي أن أبا بكر الصديق سئل عن الأب: ما هو؟ «فقال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به».

وروي أن عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴾ إلى: ﴿وَأَبّاً﴾ فقال: «كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفع عصاً كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأَبّ؛ ابتغوا ما بُيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه».

وفي صحيح البخاري عن عمر بعض هذا مختصراً.

والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأب وهما من خُلّص العرب **لأحد سببين: إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم، فأحياه القرآن**؛ لرعاية الفاصلة؛ فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان، وتنسى في بعضها مثل اسم السِّكين عند الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك: «ما كنا نقول إلا المدية حتى سمعت قول رسول اللهﷺ يذكر أن سليمان ـعليه السلام ـ قال: «**ائيتوني بالسكين أقسم الطفل بينهما نصفين**».

وإما أن كلمة الأبّ تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذي ترعاه الأنعام،

ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة؛ فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه؛ لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأب مما يرجع إلى قوله: ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ ﴾ أو إلى قوله: ﴿ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ في جمع ما قسم قبله. ١٣٣/٣٠

١٠ـ ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾: وكون أقرب الناس للإنسان يفر منهم يقتضي هولَ ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه ينجيه من الوقوع في مثله؛ إذ قد علم أنه كان مماثلاً لهم فيما ارتكبوه من الأعمال، فَذُكِرَتْ هنا أصنافُ من القرابة؛ فإن القرابة آصرةٌ تكون لها في النفس معزةٌ وحرصٌ على سلامة صاحبها وكرامته، والإلف يحدث في النفس حرصاً على الملازمة والمقارنة، وكلا هذين الوَجْدَانين يصد صاحبه عن المفارقة؛ فما ظنك بهول يغشى على هذين الوجدانين فلا يترك لهما مجالاً في النفس؟

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه؛ تدرجاً في تهويل ذلك اليوم.

فابتدىء بالأخ؛ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا، فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قرباً لابنيهما، وقدمت الأم في الذكر؛ لأن إلف ابنها بها أقوى منه بأبيه، وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مجتمع عائلة الإنسان، وأشد الناس قرباً به وملازمة.

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلاً؛ لإحضار صورة الهول في نفس السامع. ١٣٥/٣٠ـ١٣٦

سورة التكوير

١ـ **لم يثبت عن النبيﷺ أنه سماها تسمية صريحة**، وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**».

وليس هذا صريحاً في التسمية؛ لأن صفة يوم القيامة ليست في جميع هذه السورة، بل هو في الآيات الأول منها؛ فتعين أن المعنى: فليقرأ هذه الآيات.

وعُنْوِنَتْ في صحيح البخاري، وفي جامع الترمذي «سورة إذا الشمس كورت» وكذلك عنونها الطبري.

وأكثر التفاسير يسمونها (سورة التكوير) وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول (كُوِّرَتْ).

وتسمى (سورة كورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها.

ولم يعدَّها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة السابعة في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

وعدد آيها تسع وعشرون. ١٣٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت على تحقيقِ الجزاءِ صريحاً، وعلى إثبات البعثِ، وابتُدىء بوصفِ الأهوالِ التي تتقدمه، وانْتُقل إلى وصفِ أهوالٍ تَقَعُ عَقِبَه.

وعلى التنويهِ بشأنِ القرآن الذي كذبوا به؛ لأنه أوعدهم بالبعث زيادةً لتحقيقِ

وقوعِ البحث؛ إذ رموا النبيَّ ﷺ بالجنونِ، والقرآنَ بأنه يأتيه به شيطان. ٣٠/١٣٩ـ١٤٠

٣ـ **وظاهر الآية أن سؤال الموؤدة**، وعقوبة من وأدها أول ما يقضى فيه يوم القيامة كما يقتضي ذلك جعلُ هذا السؤال وقتاً تعلم عنده كل نفس ما أحضرت؛ فهو من أول ما يعلم به حين الجزاء.

والوأد: دفن الطفلة وهي حية: قيل: هو مقلوب آداه، إذا أثقله؛ لأنه إثقال الدفينة بالتراب.

قال في الكشاف: «كان الرجل إذا وُلِدتْ له بنتٌ؛ فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية يقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء؛ فيبلغ بها البئر، فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

وقيل: كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة، فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته» اهـ.

وكانوا يفعلون ذلك؛ خشية من إغارة العدو عليهم، فيسبي نساءهم، ولخشية الإملاق في سني الجدب؛ لأن الذكر يحتال للكسب بالغارةِ وغيرها، والأنثى عالةٌ على أهلها، قال ـتعالى ـ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وإذ قد فشى فيهم كراهية ولادة الأنثى فقد نما في نفوسهم بغضها، فتحركت

فيها الخواطر الإجرامية؛ فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى؛ خشيةً من فراق زوجها إياها، وقد يهجر الرجل امرأته إذا ولدت أنثى.

وقد توارثت هذا الجهل أكثرُ الأمم على تفاوت بينهم فيه، ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته: «نعم الصهر القبر».

ومن آثار هذا الشعور حرمانُ البنات من أموال آباءهن بأنواع من الحيل، مثل: وقف أموالهم على الذكور دون الإناث، وقد قال مالك: «إن ذلك من سنة الجاهلية»، ورأى ذلك الحُبس باطلاً، وكان كثير من أقرباء الميت يلجئون بناته إلى إسقاط حقهن في ميراث أيهن لأخوتهن في فور الأسف على موت أبيهن؛ فلا يمتنعن من ذلك، ويرين الامتناع من ذلك عاراً عليهن؛ فإن لم يفعلن قطعهن أقرباؤهن.

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل، وبعضهم يعدها من الإكراه.

ولم يكن الوأد معمولاً به عند جميع القبائل، قيل: أول من وأد البنات من القبائل ربيعة، وكانت كندة تئد البنات، وكان بنو تميم يفعلون ذلك، ووأد قيس ابن عاصم المنقري من بني تميم ثمان بنات له قبل إسلامه.

ولم يكن الوأد في قريش البتة، وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بني تميم يفتدي من يعلم أنه يريد وأد بنته من قومه بناقتين عشراوين وجمل، فقيل: إنه افتدى ثلاثمائة وستين موءودة، وقيل؛ وسبعين، وفي الأغاني: وقيل: أربعمائة.

وفي تفسير القرطبي: فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة، ومثل هذا في

كتاب الشعراء لابن قتيبة وبين العددين بون بعيد؛ فلعل في أحدهما تحريفاً.

وفي توجيه السؤال إلى الموءودة ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ في ذلك الحشر إدخال الروع على مَنْ وأدها، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجب قتلها؛ للتعريض بالتوبيخ والتخطئة للذي وأدها، وليكون جوابُها شهادةً على من وأدها؛ فيكون استحقاقُهُ العقابَ أشدَّ وأظهر. ٣٠/١٤٥ـ١٤٦

٤ـ ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِي الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

و﴿ الْخُنَّس ﴾ : جمع خانسة، وهي التي تخنس، أي تختفي، يقال: خنست البقرة والظبية، إذا اختفت في الكناس.

و﴿ الْجَوَارِي ﴾ : جمع جارية، وهي التي تجري، أي تسير سيراً حثيثاً.

و﴿ الْكُنَّسِ ﴾ : جمع كانسة، يقال: كنس الظبي، إذا دخل كِناسه بكسر الكاف، وهو البيت الذي يتخذه للمبيت.

وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية؛ لأن الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب، وصفن بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار؛ فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه، فقيل: الخنس وهو من بديع التشبيه؛ لأن الخنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون السكون في كناس.

وكذلك الكواكب؛ لأنها لا ترى في النهار؛ لغلبة شعاع الشمس على أفقها، وهي مع ذلك موجودة في مطالعها.

وشبه ما يبدو للأنظار من تنقلها في سمت الناظرين للأفق باعتبار اختلاف ما يسامتها من جزء من الكرة الأرضية بخروج الوحش، فشُبِّهت حالةُ بُدُوّها بعد

احتجابها مع كونها كالمتحركة بحالة الوحش تجري خنوسها تشبيه التمثيل، وهو يقتضي أنها صارت مرئية؛ فلذلك عقَّب بعد ذلك بوصفها بالكنس أي عند غروبها؛ تشبيهاً لغروبها بدخول الظبي أو البقرة الوحشية كِناسَها بعد الانتشار والجري.

فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها، وشبه تنقل مرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كِناسها صباحاً، قال لبيد:

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت ... بَكَرَتْ تَزِلُّ عن الثرى أزلامُها

وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها، وهو تشبيه بديع؛ فكان قوله: ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ استعارة، وكان: ﴿الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ ترشيحين للاستعارة.

وقد حصل من مجموع الأوصافِ الثلاثِ ما يُشْبِهُ اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباءٌ أو وحوشٌ؛ لأن تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش، والألغاز طريقةٌ مستملحة عند بلغاء العرب، وهي عزيزة في كلامهم، قال بعض شعرائهم وهو من شواهد العربية:

فقلت أعيراني القَدوم لعلني ... أخُطُّ بها قبرا لأبيض ماجد

أراد أنه يصنع بها غمداً لسيف صقيل مهند.

وعن ابن مسعود، وجابر بن عبدالله، وابن عباس: حَمْلُ هذه الأوصاف على حقائقها المشهورة، وأن الله أقسم بالظباء، وبقر الوحش. ٣٠/١٥٢ـ١٥٣

٥ـ **وعسعس الليل** عَسْعَاساً وعسة، قال مجاهد عن ابن عباس: أقبل بظلامه، وقال مجاهد ـأيضاًـ عن ابن عباس معناه: أدبر ظلامه، وقاله زيد ابن أسلم، وجزم به الفراء، وحكى عليه الإجماع، وقال المبرد والخليل: هو من

الأضداد[1] يقال: عسعس، إذا أقبل ظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه، قال ابن عطية: «قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معاً» اهـ. ١٥٤/٣٠

٦ـ **والتنفس**: حقيقته خروج النفس من الحيوان، أستعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجُعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس. ١٥٤/٣٠

---

١ ـ الأضداد، ويقال: التضاد، والمتضاد من مباحث علم فقه اللغة، وهو نوع من المشترك، وهو: دلالة اللفظ الواحد على معنيين متضادين.

أو هو: أن يطلق اللفظ على المعنى وضده، مثل الجون: يطلق على الأبيض والأسود، والحميم على الحار والبارد، ويفهم المراد من خلال السياق.

ومن أعظم الكتب المؤلفة فيه: كتاب الأضداد لأبي بكر بن الأنباري. (م)

سورة الانفطار

١ـ **سميت هذه السورة** (سورة الانفطار) في المصاحف ومعظم التفاسير.

وفي حديث رواه الترمذي عن ابن عمر قال: «**قال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**» قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقد عرفت ما فيه من الاحتمال في أول سورة التكوير.

وسميت في بعض التفاسير (سورة إذا السماء انفطرت) وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، ولم يعدَّها صاحبُ الإتقان مع السور ذات أكثر من اسم وهو (الانفطار).

ووجه التسمية وقوع جملة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ في أولها؛ فعرفت بها.

وسميت في قليل من التفاسير (سورة انفطرت) وقيل تسمى (سورة المنفطرة) أي السماء المنفطرة.

وهي مكية بالاتفاق.

وهي معدودة الثانية والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة النازعات، وقبل سورة الانشقاق.

وعدد آيها تسع عشرة آية. ١٦٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: واشتملت هذه السورةُ على: إثباتِ البعث، وذكرِ أهوالٍ تتقدمه.

وإيقاظُ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله

ـتعالى ـ وعن النظر في دلائلِ وقوعِ البعث والجزاء.

والإعلام بأن الأعمالَ محصاةٌ، وبيانُ جزاءِ الأعمال خيرِها وشرِّها.

وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئاً ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيِّئ أعمالهم. ٣٠/١٦٩ـ١٧٠

٣ـ **وانفطرت**: مطاوع فَطَر، إذا جعل الشيء مفطوراً، أي مشقوقاً ذا فطور، وتقدم في سورة الملك.

وهذا الانفطار: انفراج يقع فيما يسمى بالسماء، وهو ما يشبه القُبَّة في نظر الرائي يراه تسير فيه الكواكب في أسمات مضبوطة تسمى بالأفلاك تشاهد بالليل، ويعرف سَمْتُها في النهار، ومشاهدتها في صورة متماثلة مع تعاقب القرون تدل على تجانس ما هي مصورة منه؛ فإذا اختل ذلك، وتخللته أجسام أو عناصر غريبة عن أصل نظامه تفككت تلك الطباق، ولاح فيها تشقُّقٌ؛ فكان علامةً على انحلال النظام المتعلق بها كله.

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق ـأيضاًـ في سورة الانشقاق، وهو حدث يكون قبل يوم البعث، وأنه من أشراط الساعة؛ لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب، وحركة الأرض، وذلك يقتضيه قَرْنُهُ بانتثار الكواكب، وتفجر البحار، وتبعثر القبور.

وأما الكشط الذي تقدم في سورة التكوير في قوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ فذلك عَرَضٌ آخر يعرض للسماوات يوم الحشر؛ فهو من قبيل قوله ـتعالىـ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾. ٣٠/١٧١

سورة المطففين

١ـ **سميت هذه السورة في كتب السنة**، وفي بعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، والترمذي في جامعه.

وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف (سورة المطففين) اختصاراً.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم، وسماها (سورة المطففين) وفيه نظر.

وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية، أو بعضها مكي وبعضها مدني؛ فعن ابن مسعود، والضحاك، ومقاتل في رواية عنه: أنها مكية، وعن ابن عباس في الأصح عنه، وعكرمة، والحسن، والسدي، ومقاتل في رواية أخرى عنه: أنها مدنية، قال: وهي أول سورة نزلت بالمدينة، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات من آخرها من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخرها.

وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة؛ فهي لذلك مكية؛ لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن.

قال ابن عطية: «احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها أي قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

والذي نختاره: أنها نزلت قبل الهجرة؛ لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث».

ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة، لأن التطفيف كان فاشياً في البلدين، وقد حصل من اختلافهم أنها: إما آخر ما أنزل بمكة، وإما أول ما أنزل بالمدينة، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن، فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً؛ فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك».

وعن القرظي: «كان بالمدينة تجار يطففون الكيل، وكانت بياعاتهم كسبة القمار، والملامسة، والمنابزة، والمخاصرة؛ فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية؛ فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق، وقرأها، وكانت عادةٌ فشت فيهم من زمن الشرك؛ فلم يتفطن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة؛ لما فيه من أكل مال الناس؛ فأريد إيقاظهم لذلك؛ فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سنوا التطفيف».

وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة؛ لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكراً عاماً؛ فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق، وفي المبادلات.

وهي معدودة السادسة والثمانين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العنكبوت، وقبل سورة البقرة.

وعدد آيها ست وثلاثون. ٣٠/١٨٧ـ١٨٨

٢ـ **أغراضها:** اشتملت على التحذيرِ من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تَحَيُّلٌ على أكلِ مالِ الناس في حال المعاملة أخذاً وإعطاءً.

وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة.

وتهويلُ ذلك اليوم بأنه وقوفٌ عند ربهم؛ ليفصل بينهم، وليجازيهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله.

ووعيدُ الذين يكذبون بيوم الجزاء والذين يكذبون بأن القرآن منزل من عند الله.

وقوبل حالُهم بضدِّه مِنْ حالِ الأبرار أهل الإيمان، ورفعِ درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين، وذكر صور من نعيمهم.

وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل؛ إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين، ويلمزونهم، ويستضعفونهم، وكيف انقلب الحالُ في العالم الأبدي. ٣٠/١٨٨ـ١٨٩

٣ـ والتطفيف: النقص عن حق المقدار في الموزون أو المكيل، وهو مصدر طفَّف إذ بلغ الطفافة، والطُفَاف بضم الطاء وتخفيف الفاء ما قَصُر عن ملء الإناء من شراب أو طعام، ويُقال: الطَفَّ بفتح الطاء دون هاء تأنيث، وتطلق هذه الثلاثة على ما تجاوز حرف المكيال مما يملأ به، وإنما يكون شيئاً قليلاً زائداً على ما ملأ الإناء؛ فمن ثمَّ سُمِّيت طفافة، أي قليل زيادة.

ولا نعرف له فعلاً مجرداً؛ إذ لم ينقل إلا بصيغة التفعيل، وفِعْلُه: طفَّف، كأنهم راعوا في صيغة التفعيل معنى التكلف والمحاولة؛ لأن المطفف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المكتال، ويقابله الوفاء. ٣٠/١٨٩

٤ـ وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف؛ إذ وجوده[1] فاشياً في المدينة في أول هجرتهم، وذم للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة.

وحسبهم أن التطفيفَ يجمع ظلماً، واختلاساً، ولؤماً، والعرب كانوا يتعيرون

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: إذ وجدوه. (م)

بكل واحد من هذه الخلال متفرقة، ويتبرؤون منها، ثم يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفناً. ١٩٢/٣٠

٥ـ ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾.

جملة: ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ وما عطف عليها ابتدائية، وقد اشتملت الجملة ومعطوفاها على أنواع ثلاثة من الويل وهي الإهانة، والعذاب، والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب.

فأما الإهانة فَحَجْبُهم عن ربهم، والحجب هو الستر، ويستعمل في المنع من الحضور لدى الملك، ولدى سيد القوم، قال الشاعر الذي لم يُسَمَّ وهو من شواهد الكشاف:

إذا اعتروا باب ذي عُبِّيَّه رجبوا ... والناس من بين مرجوب ومحجوب

وكلا المعنيين مراد هنا؛ لأن المكذبين بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة حين يراه أهل الإيمان. ٢٠٠/٣٠ـ٢٠١

٦ـ و﴿ يَنظُرُونَ ﴾ في موضع الحال من الأبرار، وحذف مفعول ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إما لدلالة ما تقدم عليه من قوله في ضدهم: ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ والتقدير: ينظرون إلى ربهم، وإما لقصد التعميم، أي ينظرون كلَّ ما يبهج نفوسهم، ويسرهم بقرينة مقاعد الوعد والتكريم. ٢٠٥/٣٠

٧ـ **ومرادهم بالضلال**: فساد الرأي؛ لأن المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي، أي هؤلاء سيئوا الرأي؛ إذ اتبعوا الإسلام وانسلخوا عن قومهم، وفرَّطوا في نعيم الحياة؛ طمعاً في نعيمٍ بعد الموت، وأقبلوا على الصلاة والتخلق

بالأخلاق التي يراها المشركون أوهاماً وعنتاً؛ لأنهم بمعزل عن مقدرةِ قَدْرِ الكمال النفساني، وما همهم إلا التلذذ الجثماني. ٣٠/٢١٣

٨ـ **ولم يعرج أحد من المفسرين على بيان مفاد جملة:** ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ مع ما قبلها.

وقال المهايمي في تبصرة الرحمن: وإذا رأوهم يؤثرون الكمالات الحقيقية على الحسية، فقدر مفعولاً محذوفاً لفعل ﴿رَأَوْهُمْ﴾ لإبداء المغايرة بين مضمون هذه الجملة ومضمون الجمل التي قبلها، وقد علمت عدم الاحتياج إليه، ولقد أحسن في التنبيه عليه. ٣٠/٢١٣

سورة الانشقاق

١ـ **سميت في زمن الصحابة (سورة إذا السماء انشقت)** ففي الموطأ عن أبي سلمة: «أن أبا هريرة قرأ بهم إذا السماء انشقت، فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها».

فضمير (فِيهَا) عائد إلى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بتأويل السورة، وبذلك عنونها البخاري والترمذي، وكذلك سماها في الإتقان.

سماها المفسرون وكُتَّابُ المصاحف (سورة الانشقاق) باعتبار المعنى، كما سميت السورة السابقة (سورة التطفيف) و(سورة انشقت) اختصاراً.

وذكرها الجعبري في نظمه في تعداد المكي والمدني بلفظ (كَدْح) فيحتمل أنه عنى أنه اسم للسورة، ولم أقف على ذلك لغيره.

ولم يذكرها في الإتقان مع السور ذوات الأكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت الثالثة والثمانين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم.

وعد آيها خمساً وعشرين أهل العدد بالمدينة ومكة والكوفة وعدها أهل البصرة والشام ثلاثاً وعشرين. ٢١٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: ابتدئت بوصفِ أشراطِ الساعةِ، وحلولِ يومِ البعثِ، واختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء. ٢١٧/٣٠

٣ـ **والانشقاق**: هذا هو الانفطار الذي تقدم في قوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ

انفَطَرَتْ﴾ وهو انشقاق يلوح للناس في جو السماء من جراء اختلال تركيب الكرة الهوائية، أو من ظهور أجرام كوكبية تخرج عن دوائرها المعتادة في الجو الأعلى، فتنشق القبة الهوائية، فهو انشقاق يقع عند اختلال نظام هذا العالم. ٢١٨/٣٠

٤ـ **والأجر غير الممنون**: هو الذي يعطاه صاحبه مع كرامة بحيث لا يعرض له بمنة كما أشار إليه قوله ـتعالى ـ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ونحوه مما ذكر فيه مع الجزاء سببه.

والمعنى: أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدر؛ فإن المن ينغص الإنعام قال ـتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾.

وقال النابغة:

علي لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ ... لوالده ليست بذات عقارب

٢٣٥/٣٠

سورة البروج

١ـ **روى أحمد عن أبي هريرة**: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج».

وهذا ظاهر في أنها تسمى (سورة السماء ذات البروج) لأنه لم يحك لفظ القرآن؛ إذ لم يذكر الواو.

وأخرج أحمد ـأيضاًـ عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ في العشاء بالسماوات».

أي السماء ذات البروج، والسماء والطارق؛ فمجمعهما جمع سماء، وهذا يدل على أن اسم السورتين: سورة السماء ذات البروج، سورة السماء والطارق.

وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير (سورة البروج).

وهي مكية باتفاق.

ومعدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وسورة: ﴿التِّينِ﴾.

وآيها اثنتان وعشرون آية. ٢٣٦/٣٠

٢ـ **من أغراض هذه السورة**: ابتدئت أغراضُ هذه السورةِ بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكةَ بأنهم مثلُ قوم فَتَنوا فريقاً ممن آمن بالله؛ فجعلوا أخدوداً من نار؛ لتعذيبهم؛ ليكون المثلُ تثبيتاً للمسلمين، وتصبيراً لهم على أذى المشركين، وتذكيرِهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثلُه، ولم يصدَّهم ذلك عن دينهم.

وإشعارُ المسلمين بأن قوةَ اللهِ عظيمةٌ؛ فسيلقى المشركون جزاءَ صنيعهم، ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر.

والتعريضُ للمسلمين بكرامتهم عند الله ـتعالى ـ.

وضربُ المثلِ بقومِ فرعونَ وبثمودَ، وكيف كانت عاقبةُ أمرِهم ما كذبوا الرسل، فحصلت العبرةُ للمشركين في فتنهم المسلمين، وفي تكذيبهم الرسولﷺ والتنويه بشأن القرآن. ٣٠/٢٣٦ـ٢٣٧

٣ـ **والبروج**: تطلق على علامات من قُبَّةِ الجوِّ يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سَمْتِها مدةَ شهر من أشهر السنة الشمسية؛ فالبروج: اسم منقول من اسم البرج بمعنى القصر؛ لأن الشمس تنزله، أو منقول من البرج بمعنى الحصن.

والبرج السماوي يتألف من مجموعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبداً.

وإنما سمي برجاً؛ لأن المصطلحين تخيلوا أن الشمس تَحُلُّ فيه مدةً؛ فهو كالبرج، أي القصر، أو الحصن، ولما وجدوا كل مجموعة منها يخال منها شكل لو أحيط بإطار لخطٍّ مفروض لأشبه محيطها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات ـ ميزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريباً؛ فقالوا: برج الثور، برج الدلو، برج السنبلة مثلاً.

وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهاراً في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً، وقد تقدم عند قوله ـتعالى ـ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾ في سورة الفرقان. ٣٠/٢٣٨

٤ ـ **والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود** قوم اتبعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات، وذكرت فيها روايات متقاربة تختلف بالإجمال والتفصيل، والترتيب، والزيادة، والتعيين.

وأصحها ما رواه مسلم والترمذي عن صهيب أن النبي ﷺ قص هذه القصة على أصحابه.

وليس فيما روي تصريح بأن النبي ﷺ ساقها تفسيراً لهذه الآيةِ، والترمذيُّ ساق حديثها في تفسير سورة البروج.

وعن مقاتل كان الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد في نجران، وبالشام، وبفارس.

أما الذين بالشام فـ(انطانيوس) الرومي، وأما الذي بفارق[1] فهو (بختنصر)، والذي بنجران فـ(يوسف ذو نواس).

ولنذكر القصة التي أشار إليها القرآن تؤخذ من سيرة ابن إسحاق على أنها جرت في نجران من بلاد اليمن، وأنه كان ملك وهو ذو نواس له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه عبدالله بن الثامر، وكان يجد في طريقه إذا مشى إلى الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى ـعليه السلامـ ويقرأ الإنجيل اسمه (فيميون) بفاء، فتحتية، فميم، فتحتية وضبط في الطبعة الأوربية من سيرة ابن إسحاق ـالتي يلوح أن أصلها المطبوعة عليه أصل صحيحـ بفتح فسكون فكسر فضم.

قال السهيلي: ووقع للطبري للقاف عوض الفاء، وقد يحرف، فيقال: ميمون

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب بـ: فارس. (م).

بميم في أوله وبتحتية واحدة أصله من غسان من الشام، ثم ساح، فاستقر بنجران، وكان منعزلاً عن الناس مختفياً في صومعته، وظهرت لعبدالله في قومه كرامات، وكانت كلما ظهرت له كرامة دعا من ظهرت لهم إلى أن يتبعوا النصرانية؛ فكثر المتنصرون في نجران، وبلغ ذلك الملك ذا نواس وكان يهودياً، وكان أهل نجران مشركين يعبدون نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بأخاديد وجمع فيها حطب وأشعلت، وعرض أهل نجران عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار.

فكان أصحاب الأخدود ممن عذب من أهل دين المسيحية في بلاد العرب، وقصص الأخاديد كثيرة في التاريخِ، والتعذيبُ بالحرق طريقةٌ قديمة، ومنها: نار إبراهيم -عليه السلام-.

وأما تحريق عمرو بن هند مائة من بني تميم، وتلقيبه بالمحرِّق - فلا أعرف أن ذلك كان باتخاذ أخدود.

وقال ابن عطية: «رأيت في بعض الكتب أن أصحاب الأخدود هو محرق وآله الذي حرق من بني تميم مائة». ٣٠/٢٤١-٢٤٢

٥- **والأخدود**: بوزن أفعول وهو صيغة قليلة الدوران غير مقيسة، ومنها قولهم: أفحوص مشتق من فحصت القطاة والدجاجة إذا بحثت في التراب موضعاً تبيض فيه، وقولهم أسلوب اسم لطريقة، ولِسَطْر النخل، وأقنوم اسم لأصل الشيء.

وقد يكون هذا الوزنُ مع هاء تأنيثٍ مثل أكرومة، وأعجوبة، وأطروحة، وأضحوكة. ٣٠/٢٤٢

٦ـ **والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**: هم مشركو قريش، وليس المراد أصحاب الأخدود؛ لأنه لا يلاقي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إذ هو تعريض بالترغيب في التوبة، ولا يلاقي دخول الفاء في خبر ﴿إِنَّ﴾ من قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ كما سيأتي.

وقد عُدَّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفتنة ومُسْعِرُها، وأميةُ ابن خلف، وصفوان بن أمية، والأسود بن عبديغوث، والوليد بن المغيرة، وأم أنمار، ورجل من بني تيم.

والمفتونون: عد منهم بلال بن رباح كان عبداً لأمية بن خلف، فكان يعذبه، وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، وخباب بن الأرت كان عبداً لأم أنمار، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأخوه عبدالله كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة؛ فوكَّل بهم أبا جهل، وعامر بن فهيرة كان عبداً لرجل من بني تيم.

والمؤمنات المفتونات منهن: حمامة أم بلال أمة أمية بن خلف، وزنيرة، وأم عنيس كانت أمة للأسود بن عبديغوث، والنهدية وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة، ولطيفة، ولبينة بنت فهيرة كانت لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يضربها، وسمية أم عمار بن ياسر كانت لعم أبي جهل.

وفتن ورجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن المنبه بن الحجاج.

وعطف ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ للتنويه بشأنهن؛ لئلا يظن أن هذه المزية خاصة بالرجال، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنهم اعتدوا على النساءِ، والشأنُ أن لا يتعرض لهن بالغلظة. ٣٠/٢٤٥ـ٢٤٦

٧ـ **وضرب المثل بفرعون لأبي جهل**، وكان يلقب عند المسلمين بفرعون هذه الأمة، وضرب المثل للمشركين بقوم فرعون؛ لأنهم أكبر أمة تألَّبت على رسول من رسل الله بعثه الله لإعتاق بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون، وناووه؛ لأنه دعا إلى عبادة الرب الحق؛ فغاظ ذلك فرعون الزاعم أنه إله القبط، وابن آلهتهم.
٢٥١/٣٠

سورة الطارق

١ـ روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والطارق» اهـ.

فسماها أبو هريرة (السماء والطارق) لأن الأظهر أن الواو من قوله والسماء والطارق واو العطف، ولذلك لم يذكر لفظ الآية الأولى منها، بل أخذ لها اسماً من لفظ الآية كما قال في (السماء ذات البروج).

وسميت في كتب التفسير، وكتب السنة، وفي المصاحف (سورة الطارق) لوقوع هذا اللفظ في أولها.

وفي تفسير الطبري وأحكام ابن العربي ترجمت سورة (والسماء والطارق).

وهي سبع عشرة آية.

وهي مكية بالاتفاق نزلت قبل سنة عشر من البعثة، أخرج أحمد بن حنبل عن خالد بن أبي جبل العدواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فسمعته يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ حتى ختمها قال: «فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام» الحديث.

وعددها في ترتيب نزول السور السادسة والثلاثين، نزلت بعد سورة: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وقبل سورة: ﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ﴾. ٢٥٧/٣٠

٢ـ **أغراضها:** إثباتُ إحصاءِ الأعمال، والجزاءِ على الأعمال.

وإثباتُ إمكانِ البعثِ بنقضِ ما أحاله المشركون ببيان إمكانِ إعادةِ الأجسام.

وأدمج في ذلك التذكيرُ بدقيق صنعِ الله وحكمتِه في خلق الإنسان.

والتنويهُ بشأن القرآن.

وصدقُ ما ذُكِرَ فيه من البعث؛ لأن إخبارَ القرآن به لَمَّا استبعدوه، وموهوا على الناس بأن ما فيه غير صدق، وتهديد المشركين الذين ناووا المسلمين.

وتثبيتُ النبيﷺ وَوَعْدُه بأن اللهَ منتصرٌ له غير بعيد. ٢٥٧/٣٠ـ٢٥٨

٣ـ **والصُّلب**: العمود العظمي الكائن في وسط الظهر، وهو ذو الفقرات.

والترائب: جمع تريبة، ويقال: تريب، ومحررُ أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين ووسموه بأنه موضع القلادة من المرأة.

والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء؛ لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال.

وقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ الضمير عائد إلى: ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ وهو المتبادر؛ فتكون جملة يخرج حالاً من ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أي يمر ذلك الماء بعد أن يُفْرَزَ من بين صلب الرجل وترائبه.

وبهذا قال سفيان والحسن، أي أن أصلَ تَكَوُّنِ ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وليس المعنى أنه يمر بين الصلب والترائب؛ إذ لا يتصور ممر بين الصلب والترائب؛ لأن الذي بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلوع من قلب ورئتين.

فجعل الإنسان مخلوقاً من ماء الرجل؛ لأنه لا يتكون جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل؛ فإذا اختلط ماء الرجل بما يسمى ماء المرأة وهو شيء رطب كالماء يحتوي على بويضات دقيقة يثبت منها ما يتكوَّن منه

الجنين، ويطرح ما عداه.

وهذا مخاطبةٌ للناس بما يعرفون يومئذ بكلامٍ مجملٍ مع التنبيه على أن خلق الإنسان من ماء الرجل وماء المرأة بذكر الترائب؛ لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة.

ولا شك أن النسلَ يتكون من الرجل والمرأة، فيتكون من ماء الرجل وهو سائل فيه أجسام صغيرة تسمى في الطب الحيوانات المنوية، وهي خيوط مستطيلة مؤلفة من طرف مُسَطَّح بيضوي الشكل، وذنب دقيق كخيط، وهذه الخيوط يكون منها تلقيح النسل في رحم المرأة، ومقرها الأنثيان، وهما الخصيتان فيندفع إلى رحم المرأة.

ومن ماء هو للمرأة كالمني للرجل، ويسمى ماء المرأة، وهو بويضات دقيقة كروية الشكل تكون في سائل مقره حويصلة من حويصلات يشتمل عليها مبيضان للمرأة، وهما بمنزلة الأنثيين للرجل؛ فهما غدتان تكونان في جانبي رحم المرأة، وكل مبيض يشتمل على عدد من الحويصلات يتراوح من عشر إلى عشرين.

وخروج البيضة من الحويصلة يكون عند انتهاء نمو الحويصلة، فإذا انتهى نموها انفجرت، فخرجت البيضة في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم، وإنما يتم بلوغ البيضة النمو وخروجها من الحويصلة في وقت حيض المرأة؛ فلذلك يكثر العلوق إذا باشر الرجل المرأة بقرب انتهاء حيضها.

وأصل مادة كلا الماءين مادة دموية تنفصل عن الدماغ، وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع، وهو الصلب، ثم ينتهي إلى

عرق ما يسمى الحبل المنوي مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الانثيين، وهما الغدتان اللتان تفرزان المني، فيتكون هنالك بكيفية دهنية، وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دهنية شحمية، وذلك عند دغدغة ولذع القضيب المتصل بالأنثيين، فيندفق في رحم المرأة.

وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب؛ لأن فيه موضع الثديين وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل.

والحيض يسيل من فوهات عروق في الرحم، وهي عروق تنفتح عند حلول إبَّان المحيض، وتنقبض عقب الطهر، والرحم يأتيها عصب من الدماغ.

وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علم به للذين نزل بينهم، وهو إشارة مجملة، وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة: «أن رسول الله ﷺ سئل عن احتلام المرأة، فقال: تغتسل إذا أبصرت الماء فقيل له: أترى المرأة ذلك فقال: «وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه». ٣٠/٢٦٣-٢٦٤

سورة الأعلى

١ـ **هذه السورة وردت تسميتها في السنة سورة:** ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ففي الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال: «قام معاذ فصلى العشاء الآخرة، فطوَّل، فشكاه بعض من صلى خلفه إلى النبيﷺ فقال النبي: «**أفتان أنت يا معاذ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى**» اهـ.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: «ما جاء رسول اللهﷺ المدينة حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى» في سور مثلها.

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير: «أن رسول اللهﷺ كان يقرأ في العيد ويوم الجمعة سبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية».

وسمتها عائشة (سبح) روى أبو داود والترمذي عنها: «**كان النبي يقرأ في الوتر في الركعة الأولى سبح**» الحديث.

فهذا ظاهر في أنها أرادت التسمية؛ لأنها لم تأتِ بالجملة القرآنية كاملة، وكذلك سماها البيضاوي وابن كثير؛ لأنها اختصت بالافتتاح بكلمة (سَبِّحْ) بصيغة الأمر.

وسماها أكثر المفسرين، وكتَّابُ المصاحف (سورة الأعلى) لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها.

وهي مكية في قول الجمهور، وحديث البراء بن عازب الذي ذكرناه آنفاً يدل عليه، وعن ابن عمر وابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر، أي فهما مدنيتان؛

فتكون السورة بعضها مكي، وبعضها مدني.

وعن الضحاك أن السورة كلها مدنية.

وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، وحسبك بقوله -تعالى-: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ﴾.

وهي معدودة ثامنة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة التكوير، وقبل سورة الليل.

وروي عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن أنها سابعة قالوا: أول ما نزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم تبت، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك.

وأما جابر بن زيد فعد الفاتحة بعد المدثر، ثم عدَّ البقية؛ فهي عنده ثامنة؛ فهي من أوائل السور وقوله -تعالى-: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ﴾ ينادي على ذلك.

وعدد آيها تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد. ٢٧١/٣٠-٢٧٢

٢- **أغراضها**: اشتملت على تنزيه الله -تعالى- والإشارةُ إلى وحدانيته؛ لانفراده بخلق الإنسان، وخلقِ ما في الأرض مما فيه بقاؤه.

وعلى تأييد النبيﷺ وتثبيته على تلقي الوحي.

وأن اللهَ معطيه شريعةً سمحةً، وكتاباً يتذكر به أهلُ النفوسِ الزكيةِ الذين يخشون ربَّهم، ويُعْرِضُ عنهم أهلُ الشقاوةِ الذين يؤثرون الحياة الدنيا، ولا يعبأون بالحياة الأبدية.

وأن ما أوحي إليه يصدِّقه ما في كتب الرسل من قبله، وذلك كلُّه تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين. ٢٧٢/٣٠

٣ـ ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ بعد أن ثبَّت الله رسولهﷺ تكفل له ما أزال فَرَقَهُ من أعباء الرسالة، وما اطمأنت به نفسه من دفع ما خافه من ضعف عن أدائه الرسالةَ على وجهها، وتكفَّل له دفْعَ نسيانِ ما يُوحَى إليه إلا ما كان إنساؤه مراداً لله ـتعالى ـ ووعده بأنه وفَّقَهُ وهيَّأه لذلك، ويسَّره عليه؛ إذ كان الرسولﷺ وهو في مبدأ عهده بالرسالة ـ إذ كانت هذه السورة ثامنة السور ـ لا يعلم ما سيتعهد الله به، فيخشى أن يقصر عن مراد الله؛ فيلحقه غضب منه أو ملام.

أعقب ذلك بأن أمره بالتذكير، أي التبليغ، أي بالاستمرار عليه؛ إرهافاً لعزمه، وشحذاً لنشاطه؛ ليكون إقباله على التذكير بشراشره؛ فإن امتثال الأمر إذا عاضده إقبالُ النفس على فعل المأمور به كان فيه مسرة للمأمور؛ فجمع بين أداء الواجب، وإرضاء الخاطر. ٣٠/٢٨٣ـ٢٨٤

سورة الغاشية

١ـ **سميت في المصاحف والتفاسير** (سورة الغاشية) وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه؛ لوقوع لفظ (الْغَاشِيَةِ) في أولها.

وثبت في السنة تسميتها: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ففي الموطأ أن الضحاك ابن قيس سأل النعمان بن بشير: «بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية».

وهذا ظاهر في التسمية؛ لأن السائل سأل عما يقرأ مع سورة الجمعة، فالمسؤول عنه السورة الثانية، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وربما سميت (سورة هل أتاك) بدون كلمة (حديث الغاشية).

وبذلك عنونها ابن عطية في تفسيره وهو اختصار.

وهي مكية بالاتفاق، وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف.

وآياتها ست وعشرون. ٢٩٣/٣٠

٢ـ **أغراضها**: اشتملت هذه السورة على تهويلِ يومِ القيامة، وما فيه من عقاب قوم مشوهةٍ حالتُهم، ومن ثواب قومٍ ناعمةٍ حالتُهم، وعلى وجه الإجمال المرهِّب أو المرغِّب.

والإيماءِ إلى ما يبين ذلك الإجمالَ كلَّه بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق الله ـوهي نُصْبَ أعينهمـ على تفرده بالإلهية؛ فيعلم

السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون.

وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقاً جديداً بعد الموت يوم البعث.

وتثبيت النبي ﷺ على الدعوة إلى الإسلام، وأن لا يعبأ بإعراضهم.

وأن وراءهم البعثَ؛ فهم راجعون إلى الله، فهو مجازيهم على كفرهم، وإعراضهم. ٣٠/٢٩٣ـ٢٩٤

سورة الفجر

١ ـ **لم يختلف في تسمية هذه السورة** (سورة الفجر) بدون الواو في المصاحف، والتفاسير، وكتب السنة.

وهي مكية باتفاق سوى ما حكى ابن عطية عن أبي عمرو الداني أنه حكى عن بعض العلماء أنها مدنية.

وقد عُدَّتِ العاشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الليل، وقبل سورة الضحى.

وعدد آيها اثنتان وثلاثون عند أهل العدد بالمدينة، ومكة عدوا قوله: ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ منتهى آية، وقوله: ﴿رِزْقَهُ﴾ منتهى آية.

ولم يعدها غيرهم منتهى آية، وهي ثلاثون عند أهل العدد بالكوفة والشام، وعند أهل البصرة تسع وعشرون.

فأهل الشام عدوا: ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ منتهى آية، وأهل الكوفة عدوا: ﴿فِي عِبَادِي﴾ منتهى آية. ٣١١/٣٠

٢ ـ **أغراضها**: حَوَتْ من الأغراضِ ضربَ المثلِ لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عادٍ وثمودَ وقومِ فرعونَ.

وإنذارُهم بعذاب الآخرة، وتثبيتُ النبيﷺ مع وعده باضمحلال أعدائه.

وإبطالُ غرورِ المشركين من أهل مكة؛ إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامةٌ على أن الله أكرمهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامةٌ على أن الله أهانهم.

وأنهم أضاعوا شكرَ الله على النعمة؛ فلم يواسوا ببعضها الضعفاء، وما

زادتهم إلا حرصاً على التكثر منها.

وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفساً مالُها ولا ينفعها إلا إيمانها، وتصديقها بوعد ربها؛ وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة. ٣٠/٣١١ـ٣١٢

٣ـ ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ ﴾.

والمعنى: هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته.

فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك؛ إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسعة في الدنيا تكريماً من الله له، وما يناله من ضيق عيش إهانة أهانه الله بها.

وهذا التوهم يستلزم ظنهم أفعال الله ـتعالىـ جارية على غير حكمة، قال ـتعالىـ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

فأعلم الله رسولهﷺ والمؤمنين بالحقيقة الحق ونبههم لتجنب تخليط الدلائل الدقيقة السامية، وتجنب تحكيم الواهمة والشاهية، وذكرهم بأن الأحوال الدنيوية أعراض زائلة ومتفاوتة الطول والقصر.

وفي ذلك كله إبطال لمعتقد أهل الشرك وضلالهم الذي كان غالباً على أهل الجاهلية؛ ولذلك قال النابغة في آل غسان الذين لم يكونوا مشركين، وكانوا متدينين بالنصرانية:

مجلتهم ذاتُ الإلهِ ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ

وقد أعقب الله ذلك بالردع والإبطال بقوله: ﴿كَلَّا﴾ فمناط الردع والإبطال كلا القولين؛ لأنهما صادران عن تأويل باطل، وشبهة ضالة كما ستعرفه عند قوله -تعالى-: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾.

واقتصار الآية على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلل والآفات؛ لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج وقوة الأبدان؛ فلا يهلكون إلا بقتل أو هرم فيهم، وفي ذويهم قال النابغة:

غشى متالف لا ينظرنك الهرما

ولم يعرج أكثر المفسرين على بيان نظم الآية واتصالها بما قبلها عدا الزمخشري وابن عطية.

وقد عرف هذا الاعتقاد الضال من كلام أهل الجاهلية، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم[1] ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي بنون كرام سادة لمسود

وجعلوا هذا الغرور مقياساً لمراتب الناس، فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس؛ لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبي ﷺ وعنده عمار، وبلال، وخباب، وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيح مولى أسيد، وصهيب، في أناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبي: «أطردهم عنك؛ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك».

---

١ ـ هكذا في الأصل، والصواب:

.... **قيس بن خالد** (م)

وقالوا لأبي طالب: «لو أن ابنَ أخيك طرد هؤلاء الأعبدَ والحلفاءَ كان أعظم له في صدورنا، وأدلى لاتباعنا إياه».

وفي ذلك نزل قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآية كما تقدم في سورة الأنعام.

فنبه الله على خطأ اعتقادهم بمناسبة ذكر مماثله مما اعتقده الأمم قبلهم الذي كان موجباً صَبَّ العذاب عليهم، وأعلمهم أن أحوال الدنيا لاتتخذ أصلاً في اعتبار الجزاء على العمل، وأن الجزاء المطَّرد هو جزاء يوم القيامة. ٣٠/٣٢٥ـ٣٢٦

٤ـ واعلم أن من ضلال أهل الشرك، ومِن فتنة الشيطان لبعض جهلة المؤمنين أن يخيل إليهم ما يحصل لأحد بجعل الله من ارتباط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها؛ فيضعوا ما يصادف نفعَ أحدِهم من الحوادث موضعَ كرامةٍ من الله للذي صادفته منافع ذلك؛ تحكيماً للشاهية، ومحبة النفس، ورجماً بالغيب، وافتياتاً على الله.

وإذا صادف أحدهم من الحوادث ما جلب له ضراً تخيَّله بأوهامه انتقاماً من الله قصده به؛ تشاؤماً منهم.

فهؤلاء الذين زعموا ما نالهم من نعمة الله إكراماً من الله لهم ليسوا أهلاً لكرامة الله.

وهؤلاء الذين توهموا ما صادفهم من فتور الرزق إهانة من الله لهم ليسوا بأحط عند الله من الذين زعموا أن الله أكرمهم بما هم فيه من نعمة.

فذلك الاعتقاد أوجب تغلغل أهل الشرك في إشراكهم، وصرف أنظارهم عن التدبر فيما يخالف ذلك، وربما جرت الوساوس الشيطانية فتنة من ذلك لبعض

ضعفاء الإيمان، وقصار الأنظار والجهال بالعقيدة الحق كما أفصح أحمد ابن الراوندي[1] عن تزلزل فهمهم، وقلة علمه بقوله:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه — وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأفهام حائرة — وصيَّر العالم النحرير زنديقا

وذلك ما صرف الضالين عن تطلب الحقائق من دلائلها، وصرفهم عن التدبر فيما ينيل صاحبه رضى الله وما يوقع في غضبه.

وعِلْمُ اللهِ واسعُ، وتصرفاته شتى، وكلها صادرة عن حكمة ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾.

فقد يأتي الضر للعبد من عدة أسباب، وقد يأتي النفع من أخرى، وبعض ذلك جار في الظاهر على المعتاد، ومنه ما فيه سِمَةُ خرقِ العادة، فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد، والموفق يتيقظ للأمارات.

قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وقال: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

١ـ هو أحمد بن يحيى أبو الحسين ابن الراوندي بواو مفتوحة ثم نون ساكنة نسبة إلى راوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان، كان من المعتزلة ثم صار ملحداً توفي سنة خمسين ومائتين، وقيل: سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة ثمان وتسعين.

وتصرفات الله متشابهة بعضها يدل على مراده من الناس، وبعضها جارٍ على ما قدره من نظام العالم.

وكل قد قضاه وقدره، وسبق علمه به، وربط مسبباته بأسبابه مباشرة أو بواسطة أو وسائط.

والمتبصر يأخذ بالحيطة لنفسه وقومه، ولا يقول على الله ما يمليه عليه وهْمُهُ، ولم تنهض دلائله، ويفوض ما أشكل عليه إلى علم الله.

وليس مثل هذا المحكي عنهم من شأن المسلمين المهتدين بهدي النبي ﷺ والمتبصرين في مجاري التصرفات الربانية.

وقد نجد في بعض العوام ومن يشبههم من الغافلين بقايا من اعتقاد أهل الجاهلية لإيجاد التخيلات التي تمليها على عقولهم؛ فالواجب عليهم أن يتعظوا بموعظة الله في هذه الآية.

لا جرم أن الله قد يعجل جزاء الخير لبعض الصالحين من عباده كما قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾.

وقد يعجل العقاب لمن يغضب عليه من عباده، وقد حكي عن نوح قوله لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ وقال -تعالى-: ﴿ وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾.

ولهذه المعاملة علامات أظهرها أن تجري على خلاف المألوف كما نرى في نصر النبي ﷺ والخلفاء على الأمم العظيمة القاهرة، وتلك مواعيد من الله يحققها، أو وعيد منه يحيق بمستحقيه. ٣٠/٣٢٧-٣٢٨

سورة البلد

١ـ **سميت هذه السورة** في ترجمتها عن صحيح البخاري (سورة لا أقسم) وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة البلد).

وهو إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها، وإما لإرادة البلد المعروف وهو مكة.

وهي مكية، وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه، واقتصر عليه معظم المفسرين، وحكى ابن عطية عن قوم: أنها مدنية.

ولعل هذا قول مَنْ فسر قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن الحلَّ الإذنُ له في القتال يوم الفتح، وحمل ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ على معنى: وأنت الآن حل، وهو يرجع إلى ما روى القرطبي عن السدي وأبي صالح، وعُزِي لابن عباس.

وقد أشار في الكشاف إلى إبطاله بأن السورة نزلت بمكة بالاتفاق، وفي رده بذلك مصادرة؛ فالوجه أن يورد بأن في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ضمائر غيبة يتعين عودها إلى الإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وإلا لخلت الضمائر عن معاد.

وحكى في الإتقان قولاً أنها مدنية إلا الآيات الأربع من أولها.

وقد عدت الخامسة والثلاثين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة ق وقبل سورة الطارق.

وعدد آيها عشرون آية. ٣٠/٣٤٥

٢ـ **أغراضها**: حوتْ من الأغراضِ التنويهَ بمكةَ، وبمُقامِ النبيِّ ﷺ بها، وبركتِه

فيها وعلى أهلها.

والتنويهَ بأسلاف النبي ﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثلِ إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية مثل عدنان ومضر.

والتخلصَ إلى ذمِّ سيرةِ أهل الشرك، وإنكارهم البعث، وما كانوا عليه من التفاخرِ المُبَالَغِ فيه، وما أهملوه من شُكْرِ النعمة على الحواس، ونعمةِ النطق، ونعمةِ الفكر، ونعمةِ الإرشاد؛ فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه.

ووعيدَ الكافرين، وبشارةُ الموقنين. ٣٠/٣٤٥ـ٣٤٦

٣ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ تعليل للإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أو قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي هو غافل عن قدرة الله ـتعالىـ وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنه خلق مشاعر الإدراك التي منها العينان، وخلق آلات الإبانة وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير قادر وغير عالم بأحوالهم قال ـتعالىـ: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟.

والاستفهام يجوز أن يكون تقريرياً، وأن يكون إنكارياً.

والاقتصار على العينين؛ لأنهما أنفع المشاعر، ولأن المعلل إنكار ظنه إن لم يره أحد، وذكر الشفتين مع اللسان؛ لأن الإبانة تحصل بهما معاً؛ فلا ينطق اللسان بدون الشفتين، ولا تنطق الشفتان بدون اللسان.

ومن دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان، ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه يقولون: ينطق بلسان فصيح، ويقولون: لم ينطق

بنت شفة، أو لم ينبس ببنت شفة؛ لأن المقام مقام استدلال؛ فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق.

وأعقب ما به اكتساب العلم، وما به الإبانة عن المعلومات بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث، وذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

فاستكمل الكلام أصول التعلم والتعليم؛ فإن الإنسان خلق محباً للمعرفة محباً للتعريف بمشاعر الإدراك، يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يَعْلَمه لغيره، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته، ويمحصها. ٣٥٣/٣٠ـ٣٥٤

٤ـ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾.

لما نوه بالذين آمنوا أعقب التنويه بالثناء عليهم، وبشارتهم مفتتحاً باسم الإشارة؛ لتميزهم أكمل تمييز لإحضارهم بصفاتهم في ذهن السامع مع ما في اسم الإشارة من إرادة التنويه والتعظيم.

والميمنة جهة اليمين، فهي مفعلة للمكان مأخوذة من فعل يَمَنَهُ (فعلاً ماضياً) إذا كان على يمينه، أي على جهة يده اليمنى، أو مأخوذة من يمنه الله يمناً، إذا باركه.

وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى، قيل: سميت اليد اليمنى يميناً، ويمنى؛ لأنها أعود نفعاً على صاحبها في يسر أعماله؛ ولذلك سمي بلاد اليمن يمناً؛ لأنها عن جهة يمين الواقف مستقبلاً الكعبة من بابها، لأن باب الكعبة شرقي؛ فالجهة التي على يمين الداخل إلى الكعبة هي الجنوب وهي جهة بلاد اليمن، وكانت

بلاد اليمن مشهورة بالخيرات؛ فهي ميمونة، وكان جغرافيو اليونان يصفونها بالعربية السعيدة.

وتفرع على ذلك اعتبارهم ما جاء عن اليمين من الوحش والطير مبشراً بالخير في عقيدة أهل الزجر والعيافة؛ فالأيامن الميمونة، قال المرقش يُفَنِّد ذلك:

فإذا الأشائم كالأيا … من والأيامن كالأشائم

ونشأ على اعتبار عكس ذلك تسمية بلاد الشام شأماً بالهمز مشتقة من الشؤم؛ لأن بلاد الشام من جهة شمال الداخل إلى الكعبة.

وقد أبطل الإسلام ذلك بقول النبي ﷺ: «**اللهم بارك لنا في شأمنا وفي يمننا**».

وما تسميتهم ضد اليد اليمنى يساراً إلا لإبطال ما يتوهم من الشؤم فيها.

ولما كانت جهة اليمين جهة مكرمة تعارفوا الجلوس على اليمين في المجامع؛ كرامةً للجالس، وجعلوا ضدهم بعكس ذلك.

وقد أبطله الإسلام، فكان الناس يجلسون حين انتهى بهم المجلس.

وسمي أهل الجنة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وسمي أهل النار ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ و﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ في سورة الواقعة، فقوله: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحاب الكرامة عند الله.

وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي هم محقَّرون، وذلك كناية مبنية على عرف العرب يومئذ في مجالسهم، ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة؛ لأن حقيقة الميمنة والمشأمة تقتضيان حيزاً لمن تنسب إليه الجهة. ٣٠/٣٦٢ـ٣٦٣

سورة الشمس

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس) بدون واو، وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو في نسخ صحيحة من جامع الترمذي، ومن عارضة الأحوذي لابن العربي.

وعنونها البخاري سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) بحكاية لفظ الآية، وكذلك سميت في بعض التفاسير وهو أولى أسمائها؛ لئلا تلتبس على القارئ بسورة إذا الشمس كورت المسماة سورة التكوير.

ولم يذكرها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعُدَّت السادسة والعشرين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج.

وآياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار، وعدَّها أهل مكة ست عشرة آية. ٣٦٥/٣٠

٢ـ **أغراضها**: تهديدُ المشركين بأنهم يُوشِكُ أن يصيبهم عذابٌ بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمدﷺ كما أصاب ثمودَ بإشراكهم وعتوِّهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد.

وقُدِّم لذلك تأكيدُ الخبر بالقسم بأشياءَ معظمةٍ، وذُكِرَ منْ أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله ـتعالىـ الذي لا يشاركه فيه غيرُه؛ فهو دليلٌ على أنه المنفردُ بالإلهية، والذي لا يستحق غيرُه الإلهية.

وخاصةُ أحوالِ النفوسِ ومراتبها في مسالك الهدى والضلال، والسعادة والشقاء. ٣٠/٣٦٥ـ٣٦٦

٣ـ **وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس**، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيراً بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن، وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة. ٣٠/٣٦٧

٤ـ **وابتدئ بالشمس**؛ لمناسبة المقام؛ إيماءً للتنويه بالإسلام، لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكاً.

وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، واتبع بالقمر؛ لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه، لأنهما مَثَلٌ لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك، وذلك عكس ما في سورة الليل لما يأتي.

ومناسبة استحضارِ السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل ـ واضحة، ثم ذكرت النفس الإنسانية؛ لأنها مظهر الهدى والضلال، وهو المقصود. ٣٠/٣٦٧

٥ـ **والإلهام**: مصدر ألهم، وهو فعل متعدٍّ بالهمزة، ولكن المجرد منه مُمَاتٌ[1].

والإلهام اسم قليل الورود في كلام العرب، ولم يذكر أهل اللغة شاهداً له من كلام العرب.

ويطلق الإلهام إطلاقاً خاصاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم، ولا تجربة، ولا تفكير؛ فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانياً

---

١ ـ يعني لا يستعمل. (م)

كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية، وما كان منه عن دليل كالتجريبيات والأمور الفكرية النظرية.

وإيثار هذا الفعل هنا؛ ليشمل جميع علوم الإنسان، قال الراغب: «الإلهام: إيقاع الشيء في الرُّوع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله -تعالى- وجهة الملأ الأعلى» اهـ.

ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن مما أحياه القرآن؛ لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية، وقليلٌ رواجُ أمثالِ ذلك في اللغة قبل الإسلام؛ لقلة خُطور مثل تلك المعاني في مخاطبات عامة العرب.

وهو مشتق من اللَّهم وهو البلع دفعة، يقال: لَهَمَ كفرح، وأما إطلاق الإلهام على علم يحصل للنفس بدون مستند فهو إطلاق اصطلاحي للصوفية. ٣٠/٣٦٩-٣٧٠

سورة الليل

١ـ **سميت هذه السورة** في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (سورة الليل) بدون واو، وسميت في معظم كتب التفسير (سورة والليل) بإثبات الواو، وعنونها البخاري والترمذي (سورة والليل إذا يغشى).

وهي مكية في قول الجمهور، واقتصر عليه كثير من المفسرين، وحكى ابن عطية عن المهدوي أنه قيل: إنها مدنية، وقيل: بعضها مدني، وكذلك ذكر الأقوال في الإتقان، وأشار إلى أن ذلك لما روي من سبب نزول قوله ـتعالى ـ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ إذ روي أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري في نخلة كان يأكل أيتام من ثمرها، وكانت لرجل من المنافقين؛ فمنعهم من ثمرها؛ فاشتراها أبو الدحداح بنخيل؛ فجعلها لهم، وسيأتي.

وعدت التاسعة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأعلى، وقبل سورة الفجر.

وعدد آيها عشرون. ٣٧٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: احتوت على بيان شرفِ المؤمنين، وفضائلِ أعمالِهم، ومذمةِ المشركين، ومساويهم، وجزاء كلٍّ.

وأن اللهَ يهدي الناسَ إلى الخير؛ فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين، والضالين بعكس ذلك.

وأنه أَرسَل رسولَهﷺ للتذكير بالله وما عنده؛ فينتفع مَنْ يخشى؛ فيفلح، وَيْصدِفُ عن الذكرى مَنْ كان شقياً؛ فيكون جزاؤه النارَ الكبرى، وأولئك هم

الذين صدهم عن التذكر إيثارُ حبِّ ما هم فيه في هذه الحياة.

وأدمج في ذلك الإشارةُ إلى دلائل قدرة الله -تعالى- وبديع صنعه. ٣٠/٣٧٧-٣٧٨

٣- **وفي القسم بالليل والنهار** التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون، وبديع قدرته، وخص بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانه الجانب الذي يغشاه من الأرض، ويغشى فيه من الموجودات؛ فتعمها ظلمته، فلا تبدو للناظرين؛ لأن ذلك أقوى أحواله.

وخص بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات، وظهور على الأرض كذلك. ٣٠/٣٧٨

٤- **وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل،** ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس؛ لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة، وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي؛ فناسب تلك الحالة بإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ إلى قوله: ﴿ إِذَا تَرَدَّى ﴾. ٣٠/٣٧٨

سورة الضحى

١ ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي جامع الترمذي (سورة الضحى) بدون الواو.

وسميت في كثير من التفاسير وفي صحيح البخاري (سورة والضحى) بإثبات الواو.

ولم يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها.

وهي مكية بالاتفاق.

وسبب نزولها ما ثبت في الصحيحين يزيد أحدهما على الآخر عن الأسود ابن قيس عن جندب بن سفيان البجلي قال: «دميت إصبع رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثة، فجاءت امرأة ـ وهي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب كما في رواية عن ابن عباس ذكرها ابن عطية ـ فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أَرَهُ قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾.

وروى الترمذي عن ابن عيينة عن الأسود عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي ﷺ في غار، فدميت إصبعه فقال: هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت.

قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد؛ فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ وقال: حديث حسن صحيح.

ويظهر أن قول أم جميل لم يسمعه جندب؛ لأن جندباً كان من صغار

الصحابة، وكان يروي عن أبي بن كعب، وعن حذيفة كما قال ابن عبد البر.

ولعله أسلم بعد الهجرة، فلم يكن قوله: «كنت مع النبي ﷺ في غارٍ» مقارناً لقول المشركين: «وقد ودع محمد»، ولعل جندباً روى حديثين جمعهما ابن عيينة، وقيل: إن كلمة: «في غار» تصحيف، وأن أصلها: كنت غازياً، ويتعين حينئذ أن يكون حديثه جمع حديثين.

وعدت هذه السورة حاديةَ عشرةَ في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة الفجر، وقبل سورة الانشراح.

وعدد آيها إحدى عشرة آية.

وهي أول سورة في قصار المفصل. ٣٠/٣٩٣_٣٩٤

٢ـ **أغراضها**: إبطالُ قولِ المشركين؛ إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه.

وزاده بشارةً بأن الآخرةَ خيرٌ له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى، وأنه سيعطيه ربُّه ما فيه رضاه، وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكَّره اللهُ بما حفَّه به من ألطافه وعنايته في صباه، وفي فتوته، وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده، وثناء على الله بما هو أهله. ٣٠/٣٩٤

٣ـ **ومناسبة القسم بـ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ﴾** أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس؛ فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي، وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام. ٣٠/٣٩٤_٣٩٥

٤ـ **والاختلاف في سبب نزول هذه السورة** يدل على عدم وضوحه للرواة؛ فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يوماً، وأنه ما كان إلا للرفق بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، وتعتاد قوته تَحَمُّل أعباء الوحي؛ إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوماً، ثم كانت الثانية اثنى عشر يوماً أو نحوها، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث، وفي المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة، ولذلك يكثر الأمر بتكرر بعض الأعمال ثلاثاً.

وبهذا الوجه يجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة، وسبب نزول سورة المدثر. ٣٠/٣٩٦

سورة الانشراح

١ـ **سميت في معظم التفاسير** وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي سورة (ألم نشرح)، وسميت في بعض التفاسير سورة الشرح، ومثله في بعض المصاحف المشرقية تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله ـتعالىـ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وفي بعض التفاسير تسميتها سورة الانشراح.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت الثانية عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر.

وعن طاووس، وعمر بن عبدالعزيز أنهما كانا يقولان ألم نشرح من سورة الضحى، وكانا يقرءانهما بالركعة الواحدة لا يفصلان بينهما يعني في الصلاة المفروضة.

وهذا شذوذ مخالف لما اتفقت عليه الأمة من تسوير المصحف الإمام.

وعدد آيها ثمان. ٤٠٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: احتوت على ذكرِ عنايةِ الله ـتعالىـ لرسولهﷺ بلطف الله له، وإزالةِ الغمّ والحرجِ عنه، وتيسير[1] ما عسر عليه، وتشريفِ قدره؛ لِيُنَفِّسَ عنه؛ فمضمونُها شبيهٌ بأنه حجةٌ على مضمون سورة الضحى؛ تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما

---

١ ـ في الأصل: وتفسير، ولعل الصواب ما أُثبت. (م)

كان لِيقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه[1] النبي ﷺ.

وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عَرَضَ له عُسْرٌ فسيجد من أمره يسراً كدأب الله -تعالى- في معاملته؛ فَلْيَتَحَمَّلْ متاعبَ الرسالةِ، ويرغبَ إلى الله عونه. ٣٠/٤٠٧-٤٠٨

٣- وجملة: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ مؤكدة لجملة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد، وتعميمه؛ لأنه خبر عجيب.

ومن المفسرين من جعل اليسر في الجملة الأولى يسر الدنيا وفي الجملة الثانية يسر الآخرة، وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه؛ لأنه متمحض لكون الثانية تأكيداً.

هذا وقول النبي ﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**» قد ارتبط لفظه ومعناه بهذه الآية.

وصرح في بعض رواياته بأنه قرأ هذه الآية حينئذ، وتضافر المفسرون على انتزاع ذلك منها، فوجب التعرض لذلك، وشاع بين أهل العلم أن ذلك مستفاد من تعريف كلمة العسر وإعادتها معرفة، ومن تنكير كلمة (يسر) وإعادتها منكرة، وقالوا: إن اللفظ النكرة إذا أعيد نكرة فالثاني غير الأول، وإذا أعيد اللفظ معرفة فالثاني عين الأول كقوله -تعالى-: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾.

وبناء كلامهم على قاعدة إعادة النكرة معرفة خطأ، لأن تلك القاعدة في إعادة النكرة معرفة لا في إعادة المعرفة معرفة، وهي خاصة بالتعريف بلام العهد دون

١- في الأصل: يعمله، ولعل الصواب ما أثبت. (م)

لام الجنس.

وهي -أيضاً- في إعادة اللفظ في جملة أخرى، والذي في الآية ليس بإعادة لفظ في كلام ثان بل هي تكرير للجملة الأولى، فلا ينبغي الالتفات إلى هذا المأخذ.

وقد أبطله من قبل أبو على الحسين الجرجاني(١) مسافة في كتاب النظم كما في معالم التنزيل، وأبطله صاحب الكشاف -أيضاً- وجعل ابن هشام في المغني اللبيب تلك القاعدة خطأ.

والذي يظهر في تقرير معنى قوله: «لن يغلب عسر يسرين» أن جملة: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ تأكيد لجملة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

ومن المقرر أن المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمنه الخبر.

ولا شك أن الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله؛ فكان التأكيد مفيداً ترجيح أثر اليسر على أثر العسر، وذلك الترجيح عُبِّر عنه بصيغة التثنية في قوله يسرين؛ فالتثنية هنا كنايةٌ رمزية عن التغلب والرجحان؛ فإن التثنية قد يكنى بها عن التكرير المراد منه التكثير كما في قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. أي أرجع البصر كثيراً، لأن البصر لا ينقلب حسيراً من رجعتين.

ومن ذلك قول العرب: لبيك، وسعديك، ودواليك.

١- قال حمزة بن يوسف السهمي المتوفي سنة ٤٢٧ في تاريخ علماء جرجان: «هو أبو علي الحسين ابن يحيى بن نصر الجرجاني، له تصانيف عدة، منها في نظم القرآن مجلدتان، كان من أهل السنة روى عن العباس بن يحيى (أو ابن عيسى) العقيلي» اهـ.

والتكرير يستلزم قوة الشيء المكرر، فكانت القوة لازمُ لازمِ التثنية وإذا تعددت اللوازم كانت الكناية رمزية.

وليس ذلك مستفاداً من تعريف (الْعُسْرِ) باللام ولا من تنكير (اليسر) وإعادته منكراً. ٣٠/٤١٥ـ٤١٦

٤ـ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) ﴾ تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف، والعناية، ووعده وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر.

والفراغ: خلو باطن الظرف، أو الإناء؛ لأن شأنه أن يظرف فيه.

وفعل فرغ يفيد أن فاعله كان مملوءاً بشيء، وفراغ الإنسان: مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله.

ولم يذكر هنا متعلق ﴿ فَرَغْتَ ﴾ وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعلمها الرسول ﷺ كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة وما يحف بها؛ فالمعنى إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ عند قُفوله من إحدى غزواته: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**».

فالمقصود بالأمر هو: ﴿ فَانصَبْ ﴾.

وأما قوله: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ فتمهيد، وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين، ونفع الأمة.

وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال، ومثله قول القائل: ما تأتيني من

فلان صلة إلا أَعْقَبَتْها أخرى.

واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة، فحذف المتعلق هنا؛ لقصد العموم، وهو عمومٌ عُرْفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السياق؛ ليشمل كلَّ متعلق عمله مما هو مهم كما علمت، وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإمكان كما أقر الله بأداء الصلاة مع الشغل بالجهاد بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمْ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ إلى قوله: ﴿كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ في سورة النساء.

وهذا الحكم ينسحب على كل عمل ممكن من أعماله الخاصة به، مثل قيام الليل، والجهاد عند تقوي المسلمين، وتدبير أمور الأمة.

وتقديم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على: ﴿فَانصَبْ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره؛ لتتعاقب الأعمال.

وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني. ٣٠/٤١٦-٤١٧

سورة التين

١ـ **سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتين)** بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها، وسماها بعض المفسرين (سورة التين) بدون الواو؛ لأن فيها لفظ ﴿التِّينِ﴾ كما قالوا (سورة البقرة) وبذلك عنونها الترمذي، وبعض المصاحف.

وهي مكية عند أكثر العلماء، قال ابن عطية: «لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين».

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور المختلف فيها.

وذكر القرطبي عن قتادة أنها مدنية، ونسب ـأيضاًـ إلى ابن عباس، والصحيح عن ابن عباس أنه قال: «هي مكية».

وعدت الثامنة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة البروج، وقبل سورة الإيلاف.

وعدد آياتها ثمان. ٤١٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: احتوت هذه السورةُ على التنبيهِ بأنَّ اللهَ خلق الإنسانَ على الفطرةِ المستقيمة، ليعلموا أن الإسلام هو الفطرةُ كما قال في الآية الأخرى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وأن ما يخالف أصولَه بالأصالةِ أو بالتحريف فسادٌ وضلالٌ، ومتبعي ما يخالف الإسلام أهلُ ضلالةٍ.

والتعريضُ بالوعيد للمكذبين بالإسلام.

والإشارةُ بالأمور المُقْسَمِ بها إلى أطوار الشرائع الأربعة؛ إيماءً إلى أن الإسلامَ جاء مصدقاً لها، وأنها مشاركةٌ أصولُها لأصول دين الإسلام.

والتنويهُ بحسنِ جزاءِ الذين اتبعوا الإسلامَ في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه. ٣٠/٤١٩ـ٤٢٠

٣ـ **والتين ظاهره**: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكُمَّثْرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير، وهي من أحسن الثمار صورةً وطعماً، وسهولة مضغ؛ فحالتها دالة على دقة صنع الله، ومؤذنة بعلمه وقدرته؛ فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات، مع الإيذان بالمنة على الناس؛ إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد، والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج.

والزيتون ـأيضاًـ ظاهرُه: الثمرةُ المشهورة ذات الزيت الذي يعصر منها، فيطعمه الناس، ويستصبحون به.

والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم.

وعلى ظاهر الاسمين للتين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأولين ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، والنخعي، وعطاء، وجابر بن زيد،

ومقاتل، والكلبي؛ وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم. ٣٠/٤٢٠

٤ـ ولكن مناسبة ذكر هذين مع ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ ومع ﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾

تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة؛ فروي عن ابن عباس ـ أيضاً ـ تفسير التين بأنه مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان.

ولعل تسمية هذا الجبلِ التينَ، لكثرته فيه؛ إذ قد تسمى الأرض باسم ما يكثر فيها من الشجر كقول امرئ القيس:

أمَرْخٌ ديارُهُمُ أم عُشَرْ

وسمي بالتين موضع جاء في شعر النابغة يصف سحابات بقوله:

صهب الظلال أتين التين عن عرض ... يزجين غيماً قليلاً ماؤه شبما

والزيتون: يطلق على الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى؛ لأنه ينبت الزيتون، وروي هذا عن ابن عباس والضحاك، وعبدالرحمن بن زيد، وقتادة وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي.

ويجوز عندي أن يكون القسم بـ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ معنياً بهما شجر هاتين الثمرتين، أي اكتسب نوعاهما شرفاً من بين الأشجار يكون كثير منه نابتاً في هذين المكانين المقدسين كما قال جرير:

أتذكر حين تصقل عارضيها ... بفرع بشامة سقي البشام[1]

فدعا لنوع البشام بالسقي؛ لأجل عود بشامة الحبيبة.

وأما ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ فهو الجبل المعروف بـ (طور سينا).

١ـ وفي رواية التبريزي في شرح الحماسة: أتنسى إذ توعدنا سليمى بعود ... الخ ص٥٠ ج ١

والطور: الجبل بلغة النبط، وهم الكنعانيون، وعرف هذا الجبل بـ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ لوقوعه في صحراء (سينين) و(سينين) لغة في سين، وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين.

وقيل: سينين اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشة، وقيل: معناه الحسن بلغة الحبشة.

وقد جاء تعريبه في العربية على صيغة تشبه صيغة جمع المذكر السالم وليس بجمع؛ مجاز[1] في إعرابه أن يعرب مثل إعراب جمع المذكر بالواو نيابة عن الضمة، أو الياء نيابة عن الفتحة أو الكسرة، وأن يحكى على الياء مع تحريك نونه بحركات الإعراب مثل: صفين ويبرين، وقد تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾.

والبلد الأمين: مكة، سمي الأمين؛ لأن من دخله كان آمناً؛ فالأمين فعيل بمعنى مُفْعِل مثل الداعي السميع في بيت عمرو بن معد يكرب، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول على وجه الإسناد المجازي، أي المأمون ساكنوه قال ـتعالىـ: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

والإشارة إليه للتعظيم، ولأن نزول السورة في ذلك البلد؛ فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين نظير قوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. ٣٠/٤٢١ـ٤٢٢

٥ـ وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الأيمان، وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر؛ **فالتين إيماء إلى رسالة نوح**، وهي أول شريعة لرسول، **والزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم**؛ فإنه

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: فجاز. (م).

بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث وقد تقدم في أول الإسراء، و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ **إيماء إلى شريعة التوراة**، و﴿الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ **إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام**، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى؛ لأنها تكملة لشريعة التوراة.

وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان، **وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى** -عليه السلام- لأن المسجد الأقصى بناه سليمان -عليه السلام- فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى.

ويكون قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ **إيماء إلى شريعة إبراهيم، وشريعة الإسلام**، فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية، وبذلك يكون إيماء هذه الآية ما صرح به في قوله -تعالى-: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.

وبذلك يكون ترتيب الإيماء إلى شرائع نوح، وموسى، وعيسى، ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- غير جار على ترتيب ظهورها؛ فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين، ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض - يتأتَّى مُحَسِّنُ مراعاةِ النظير، ومُحَسِّن التورية، وليناسب ﴿سِينِينَ﴾ فواصل السورة.

وفي ابتداء السورة بالقَسَم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعةُ استهلالٍ؛ لغرض السورة، وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته.

وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النِّحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تَقَوُّم معنى براعة الاستهلال

ما يلوح في المعنى من احتمال. ٣٠/٤٢٢-٤٢٣

٦- **والتقويم**: جعل الشيء في قَوام -بفتح القاف- أي عَدْل وتسوية.

وحُسْن التقوِيم أكملُه، وأليقه بنوع الإنسان، أي أحسن تقويم له، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات.

ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده، ولا يعوق بعض قواه البعض الآخر عن أداء وظيفته؛ فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم. ٣٠/٤٢٣-٤٢٤

٧- **فأفادت الآية أن الله كَوَّن الإنسان تكويناً ذاتياً متناسباً ما خلق له** نوعه من الإعداد لنظامه وحضارته، وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله -تعالى- ولا جديراً بأن يقسم عليه؛ إذ لا أثر له في إصلاح النفس، وإصلاح الغير، والإصلاح في الأرض، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون، وطور سنين، والبلد الأمين.

وإنما هو متمم لتقويم النفس قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1].

فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع.

فالمرضي عند الله هو تقويم إدراك الإنسان، ونظره العقلي الصحيح؛ لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد؛ إذ الجسم آلة خادمة للعقل، فلذلك كان هو المقصود من قوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وأما خلق جسد الإنسان في أحسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة،

١- راوه مسلم، ورواه غيره يزيد بعضهم على بعض.

ويظهر هذا كمال الظهور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فإنه لو حمل الرد أسفل سافلين على مصير الإنسان في أرذل العمر إلى نقائص قوته كما فسر به كثير من المفسرين لكان نُبُوُّه عن غرض السورة أشدَّ، وليس ذلك مما يقع فيه تردد السامعين حتى يحتاج إلى تأكيده بالقسم.

ويدل ذلك قوله بعده: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن الإيمان أثرُ التقويم لعقل الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله على الطريق الأقوم، ومعاملة بني نوعه السالمين من عدائه معاملة الخير معهم على حسب توافقهم معه في الحق؛ فذلك هو الأصل في تكوين الإنسان إذا سلم من عوارض عائقة من بعض ذلك مما يعرض له وهو جنين؛ إما من عاهة تلحقه لمرض أحد الأبوين، أو لفساد هيكله من سقطة أو صدمة في حمله، وما يعرض له بعد الولادة من داء معضل يعرض له يترك فيه اختلال مزاجه؛ فيحرف شيئاً من فطرته كحماقة السوداويين والسكريين، أو خبال المختبلين، ومما يدخله على نفسه من مساوي العادات كشرب المسكرات، وتناول المخدرات مما يورثه على طول انثلام تعقله، أو خور عزيمته. ٣٠/٤٢٤-٤٢٥

٨- **والذي نأخذه من هذه الآية أن الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع؛** ليتصف بآثارها، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكاً مستقيماً مما يتأدى من المحسوسات الصادقة، أي الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر، بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين، بحيث لو جانبته التلقينات الضالة، والعوائد الذميمة، والطبائع المنحرفة، والتفكير الضار، أو لو تسلطت عليه تسلطاً ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب - لجرى في جميع شؤونه على الاستقامة، ولما صدرت منه إلا الأفعال الصالحة.

ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره، ويرخي العنان لهواه وشهوته؛ فترمي به في الضلالات، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع؛ فيتابعهم طوعاً أو كرهاً، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلّده، فيعتاده، وينسى الصواب والرشد.

ويفسر هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يكون أبواه هما اللذان يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**» الحديث.

ذلك أن أبويه هما أول من يتولى تأديبه وتثقيفه، وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه؛ فهما اللذان يلقيان في نفسه الأفكار الأولى، فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطاً، ثم هو بعد ذلك عُرْضَةٌ لعديد من المؤثرات فيه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

واقتصر النبي ﷺ على الأبوين؛ لأنهما أقوى أسباب الزج في ضلالتهما، وأشد إلحاحاً على ولدهما.

ولم يعرج المفسرون قديماً وحديثاً على تفسير التقويم بهذا المعنى العظيم، فَقَصَرُوا التقويم على حسن الصورة.

وروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكلبي، وإبراهيم، وأبي العالية: أو على استقامة القامة.

وروي عن ابن عباس: أو على الشباب والجلادة، وروي عن عكرمة وابن عباس.

ولا يلائم مقصد السورة إلا أن يتأول بأن ذلك ذكر نعمة على الإنسان عكس الإنسان شكرها؛ فكفر بالمنعم؛ فَرُدَّ أسفل سافلين، سوى ما حكاه ابن عطية عن

الثعلبي عن أبي بكر بن طاهر[1] أنه قال: «تقويم الإنسان عقله، وإدراكه اللذان زَيَّناه بالتمييز».

ولفظه عند القرطبي قريب من هذا مع زيادة يتناول مأكوله بيده.

وما حكاه الفخر عن الأصم[2] أن: ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان.

وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير، وأن في جِبِلَّته جلبَ النفع والصلاح لنفسه، وكراهة ما يظنه باطلاً أو هلاكاً، ومحبة الخير والحسن من الأفعال؛ لذلك تراه يسر بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف، ويعامل بالحسنى، ويغار على المستضعفين، ويشمئز من الظلم ما دام مجرداً عن روم نفع يجلبه لنفسه، أو إرضاء شهوة يريد قضاءها، أو إشفاء غضب يجيش بصدره.

تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمناً، ويهش إلى كلام الوعاظ والحكماء والصالحين، ويكرمهم، ويعظمهم، ويود طول بقائهم.

فإذا ساورته الشهوةُ السيئةُ، فزينت له ارتكاب المفاسد، ولم يستطع ردها عن نفسه ـ انصرف إلى سوء الأعمال، وَثَقَلَ عليه نصحُ الناصحين، ووعظ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك بمقدار تحكم الهوى في عقله.

ولهذا كان الأصل في الناس الخير، والعدالة، والرشد، وحسن النية عند جمهور من الفقهاء والمحدثين. ٤٢٥/٣٠ـ٤٢٧

١ـ لم أقف على تعيينه وليس يبعد أن يكون هو الأصم.

٢ـ الأصم لقب أبي بكر عبدالرحمن بن كيسان من أصحاب هشام الفوطي من المعتزلة، وقال ابن حجر في لسان الميزان: «إنه كان من طبقة أبي الهذيل العلاف المعتزلي».

سورة العلق

١ـ اشتهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم (سورة اقرأ باسم ربك) روي في المستدرك عن عائشة: «أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك».

فأخبرت عن السورة بـ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾.

وروي ذلك عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، وأبي رجاء العطاردي، ومجاهد، والزهري، وبذلك عنونها الترمذي.

وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق) لوقوع لفظ (العلق) في أوائلها، وكذلك سميت في بعض كتب التفسير.

وعنونها البخاري سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

وتسمى (سورة اقرأ) وسماها الكواشي في التخليص (سورة اقرأ والعلق).

وعنونها ابن عطية، وأبو بكر بن العربي (سورة القلم).

وهذا اسم سميت به (سورة ن والقلم) ولكن الذين جعلوا اسم هذه السورة (سورة القلم) يسمون الأخرى (سورة ن).

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

وهي مكية باتفاق، وهي أول سورة نزلت في القرآن كما ثبت في الأحاديث الصحيحة الواضحة، ونزل أولها بغار حراء على النبيﷺ وهو مجاور فيه في رمضان ليلة سبعة عشرة منه من سنة أربعين بعد الفيل إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة عن عائشة، وفيه حديث عن أبي موسى الأشعري، وهو الذي قاله أكثر المفسرين من السلف والخلف.

وعن جابر أول سورة المدثر، وتؤول بأن كلامه نص أن سورة المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي كما في الإتقان، كما أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحي الثانية.

وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة عشرون، وفي عد أهل الشام ثمان عشرة، وفي عد أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة. ٣٠/٤٣٣ـ٤٣٤

٢ـ **أغراضها**: تلقينُ محمدٍ ﷺ الكلام القرآني وتلاوته؛ إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل.

والإيماءُ إلى أن عِلْمَهُ بذلك ميسرٌ؛ لأن اللهَ الذي ألهم البشرَ العلمَ بالكتابة قادرٌ على تعليم مَنْ يشاء ابتداءً.

وإيماءٌ إلى أن أمته ستصير إلى معرفةِ القراءةِ والكتابة والعلم.

وتوجيهُه إلى النظر في خلق الله الموجودات، وخاصة خَلْقَهُ الإنسانَ خلقاً عجيباً مستخرجاً من عَلَقَةٍ؛ فذلك مبدأُ النظر.

وتهديدُ مَنْ كذَّب النبيَّ ﷺ وتعرَّضَ؛ ليصده عن الصلاة، والدعوة إلى الهدى والتقوى.

وإعلامُ النبي ﷺ أن اللهَ عالمٌ بأمرِ مَنْ يناوونه، وأنه قامعهم وناصر رسوله.

وتثبيتُ الرسولِ على ما جاءه من الحق، والصلاة، والتقرب إلى الله.

وأنْ لا يعبأَ بقوةِ أعدائه؛ لأن قوةَ اللهِ تقهرهم. ٣٠/٤٣٤

٣ـ **ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة**؛ لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافاً تكون في

مبدأ ظهورها كُروية الشكل، سابحة في دم حيض المرأة؛ فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل، فتمتزج معها، فتأخذ في التخلق إذا لم يَعُقْها عائق كما قال ـتعالى ـ: ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾.

فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تَكَوُّرها قليلاً، فشابهت العلقة التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي ساحبة[1] فيه وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة، وقد تقدم هذا في سورة غافر وأشرت إليه في المقدمة العاشرة. ٤٣٨/٣٠

٤ـ ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فلها حكم الاستئناف، و﴿ رَبُّكَ ﴾ مبتدأ، وخبره إما: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وإما جملة: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وهذا الاستئناف بياني.

فإذا نظرت إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول ﷺ أن يقول كيف: أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة؛ فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم، أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل: «**ما أنا بقارئ**».

فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة؛ إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء، والتلقين، والإلهام، وقد علم الله

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: سابحة. (م).

آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئاً.

ومقتضى الظاهر: وعلم بالقلم؛ فعدل عن الإضمار لتأكيد ما يشعر به ربك من العناية المستفادة من قوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأن هذه القراءة شأنٌ من شؤون الرب اختص بها عبده؛ إتماماً لنعمة الربوبية عليه.

وليجري على لفظ الرب وصف الأكرم.

ووصف ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم، وليس مصوغاً للمفاضلة؛ فهو مسلوب المفاضلة.

والكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطي، ونعم الله عظيمة لا تحصى ابتداءً من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد.

وقد جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية؛ فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ووصف ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها، ووصف ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص. ٣٠/٤٣٩-٤٤٠

٥ـ وقد حَصَلَتْ من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارةٌ إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم سواء كان بالدرس، أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أموراً ثلاثة: **أحدها**: الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب؛ فإن بالكتابة أَمْكَنَ للأممِ تدوينَ آراءِ علماءِ البشرِ، ونقلَها إلى الأقطار النائية، وفي الأجيال الجائية.

والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء.

والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات.

وهذان داخلان تحت قوله -تعالى-: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وفي ذلك اطمئنان لنفس النبي ﷺ بأن عدم معرفته الكتابةَ لا يحول دون قراءته؛ لأن الله علم الإنسان ما لم يعلم؛ فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة. ٣٠/٤٤١

٦- **وعلة هذا الخُلُق** أن الاستغناء تحدث صاحبَه نَفْسُه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقاً؛ حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس؛ لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لامة سلاح، وخدم، وأعوان، وعفاة، ومنتفعين بماله من شركاء، وعمال، وأجراء؛ فهو في عزة عند نفسه.

فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس. ٣٠/٤٤٤-٤٤٥

سورة القدر

١ـ **سميت هذه السورة** في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة القدر) وسماها ابن عطية في تفسيره وأبو بكر الجصاص في أحكام القرآن (سورة ليلة القدر).

وهي مكية في قول الجمهور، وهو قول جابر بن زيد، ويُروى عن ابن عباس.

وعن ابن عباس -أيضاً- والضحاك أنها مدنية، ونسبه القرطبي إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة، ويرجحه أن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة.

وقد عدها جابر بن زيد الخامسة والعشرين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة عبس وقبل سورة الشمس، فأما قول من قالوا: إنها مدنية فيقتضي أن تكون نزلت بعد المطففين وقبل البقرة.

وآياتها خمس في العدد المدني والبصري والكوفي، وست في العد المكي والشامي. ٣٠/٤٥٥

٢ـ **أغراضُها**: التنويهُ بفضلِ القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله -تعالى-.

والردُّ على الذين جحدوا أن يكون القرآنُ منزلاً من الله -تعالى-.

ورَفْعُ شأنِ الوقت الذي أُنزل فيه، ونزولُ الملائكة في ليلة إنزاله.

وتفضيلُ الليلةِ التي توافق ليلةَ إنزالِه من كل عام.

ويستتبع ذلك تحريضُ المسلمين على تحيُّنِ ليلةِ القدر بالقيام والتصدق. ٣٠/٤٥٥-٤٥٦

٣ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ : اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن؛ فافتتحت بحرف (إنَّ) وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي. ٤٥٦/٣٠

٤ ـ وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن. ٤٥٦/٣٠

٥ـ ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إيماء إلى أن الضمير في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.

ويجوز أن يكون الضمير عائداً على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة، وهو الآيات الخمس من سورة العلق؛ فإن كل جزء من القرآن يسمى قرآناً، وعلى كلا الوجهين فالتعبير بالمضي في فعل ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ لا مجاز فيه، وقيل: أطلق ضمير القرآن على بعضه مجازاً بعلاقة البعضية.

والآية صريحة في أن الآياتِ الأُولَ من القرآن نزلت ليلاً، وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي في الصحيحين لقول عائشه فيه: «**فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد**».

فكان تعبده ليلاً، ويظهر أن يكون الملك قد نزل عليه إثر فراغه من تعبده.

وأما قول عائشة: «**فرجع بها رسولُ اللهِ يرجف فؤاده**» فمعناه أنه خرج من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقينه الآيات الخمس؛ إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة، وذلك أفضل أوقات الليل كما قال ـتعالىـ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾. ٤٥٦/٣٠ـ٤٥٧

٦ـ **وليلة القدر**: اسم جعله الله لليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن، ويظهر أن

أول تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية، ولم تكن معروفة عند المسلمين، وبذلك يكون ذِكْرُها بهذا الاسم؛ تشويقاً لمعرفتها؛ ولذلك عقب بقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾.

والقدر: الذي عُرفت الليلة بالإضافة إليه هو بمعنى الشرف والفضل، كما قال -تعالى- في سورة الدخان: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾.

أي ليلة القدر والشرف عند الله -تعالى- مما أعطاها من البركة؛ فتلك ليلة جعل الله لها شرفاً؛ فجعلها مظهراً لما سبق به علمه؛ فجعلها مبدأ الوحي إلى النبي ﷺ.
٤٥٧/٣٠

٧- **والمقصود من تشريف** الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره؛ تنبيهاً على أنه -تعالى- اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً؛ لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يُختار لإيقاعه فَضْل الأوقات والأمكنة؛ فاختيار فضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله -تعالى- كقوله: ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ على الوجهين في المراد من المطهرين.
٤٥٨/٣٠

٨- **وتفضيلها بالخير على ألف شهر**: إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعاء، ووفرة ثواب الصدقات، والبركة للأمة فيها؛ لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها، ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها؛ فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله -تعالى- ولكن الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات، وما يعين على الحق والخير ونشر الدين.

وقد قال في فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها؛ لأنها ظروف للأعمال، وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس؛ ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات.

وعَدَدُ الأَلْفِ يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير كقوله: «واحد كألف».

وعليه جاء قوله -تعالى-: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وإنما جعل تمييز عدد الكثرة هنا بالشهر؛ للرعي على الفاصلة التي هي بحرف الراء.

وفي الموطأ: «قال مالك: إنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول إن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك؛ فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثلما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾» اهـ. ٣٠/٤٥٩

٩- **ومما ينبغي التنبيه له** ما وقع في جامع الترمذي بسنده إلى القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال: «قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال: سودت وجوه المؤمنين، أو يا مسود وجوه المؤمنين فقال: لا تؤنبني رحمك الله فإن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يا محمد يعني نهراً في الجنة، ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ يملكها بنو أمية يا محمد.

قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر لا يزيد يوم ولا ينقص».

قال أبو عيسى الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه،

وقد قيل عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازن نعرفه، والقاسم بن الفضل ثقة، ويوسف بن سعد رجل مجهول» اهـ.

قال ابن كثير في تفسيره: «ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن كذا قال، وعيسى بن مازن غير معروف، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث، أي لاضطرابهم في الذي يروي عنه القاسم بن الفضل، وعلى كل احتمال فهو مجهول».

وأقول: وأيضاً ليس في سنده ما يفيد أن يوسف بن سعد سمع ذلك من الحسن رضي الله عنه.

وفي تفسير الطبري عن عيسى بن مازن أنه قال: قلت للحسن: يا مسود وجوه المؤمنين إلى آخر الحديث، وعيسى بن مازن غير معروف أصلاً، فإذا فرضنا توثيق يوسف بن سعد فليس في روايته ما يقتضي أنه سمعه، بل يجوز أن يكون أراد ذكر قصة تروى عن الحسن.

واتفق حذاق العلماء على أنه حديث منكر صرَّح بذلك ابن كثير، وذكره عن شيخه المزي، وأقول: هو مختل المعنى، وسمات الوضع لائحة عليه وهو من وضع أهل النحل المخالفة للجماعة؛ فالاحتجاج به لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته، وأَيَّةُ مُلازمةٍ بين ما زعموه من رؤيا رسول الله ﷺ وبين دفع الحسن التأنيب عن نفسه؟.

ولا شك أن هذا الخبر من وضع دعاة العباسيين على أنه مخالف للواقع؛ لأن المدة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية، وبين بيعة السفاح وهو أول خلفاء العباسية ألف شهر واثنان وتسعون شهراً أو أكثر بشهر أو بشهرين؛ فما

نسب إلى القاسم الحداني من قوله: «فعددناها فوجدناها» الخ كذب لا محالة.

والحاصل أن هذا الخبر الذي أخرجه الترمذي منكر كما قاله المزي. ٣٠/٤٥٩-٤٦١

١٠- **وحكمة إخفاء تعيينها** إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليال كثيرة؛ توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة. ٣٠/٤٦٢

١١- **هذا محصل ما أفاده القرآن في فضل ليلة القدر من كل عام**، ولم يبين أنها أية ليلة، ولا من أي شهر، وقد قال -تعالى-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فتبين أن ليلة القدر الأولى هي من ليالي شهر رمضان لا محالة؛ فبنا أن نتطلب تعيين ليلة القدر الأولى التي ابتدئ إنزال القرآن فيها؛ لنطلب تعيين ما يماثلها من ليالي رمضان في جميع السنين، وتعيين صفة المماثلة، والمماثلة تكون في صفات مختلفة.

فلا جائز أن تماثلها في اسم يومها نحو الثلاثاء أو الأربعاء، ولا في الفصل من شتاء أو صيف أو نحو ذلك مما ليس من الأحوال المعتبرة في الدين؛ فعلينا أن نتطلب جهة من جهات المماثلة لها في اعتبار الدين وما يرضي الله.

وقد اختلف في تعيين المماثلة اختلافاً كثيراً وأصح ما يعتمد في ذلك: أنها من ليالي شهر رمضان من كل سنة، وأنها من ليالي الوتر كما دل عليه الحديث الصحيح: «**تحروا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان**».

والوتر: أفضل الأعداد عند الله كما دل عليه حديث: «**إن الله وتر يحب الوتر**».

وأنها ليست ليلة معينة مطردة في كل السنين بل هي متنقلة في الأعوام، وأنها في رمضان.

وإلى هذا ذهب مالك، والشافعي، وأحمد، وأكثر أهل العلم، قال ابن رشيد: وهو أصح الأقاويل، وأولاها بالصواب، وعلى أنها متنقلة في الأعوام، فأكثر أهل العلم على أنها لا تخرج عن شهر رمضان.

والجمهور على أنها لا تخرج عن العشر الأواخر منه، وقال جماعة: لا تخرج عن العشر الأواسط، والعشر الأواخر.

وتأولوا ما ورد من الآثار ضبطها على إرادة الغالب أو إرادة عام بعينه.

ولم يرد في تعيينها شيء صريح يروى عن النبي ﷺ لأن ما ورد في ذلك من الأخبار محتمل لأنْ يكون أراد به تعيينها في خصوص السنة التي أخبر عنها وذلك مبسوط في كتب السنة؛ فلا نطيل به، وقد أتى ابن كثير منه بكثير. ٣٠/٤٦٢-٤٦٣

سورة البينة

١ ـ وردت تسمية هذه السورة في كلام النبيﷺ ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبيﷺ قال لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسماني لك؟ قال: نعم، فبكى**».

فقوله: أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واضح أنه أراد السورة كلها؛ فسماها بأول جملة فيها.

وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة (لم يكن) بالاقتصار على أول كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب.

وسميت في أكثر المصاحف (سورة القيمة) وكذلك في بعض التفاسير، وسميت في بعض المصاحف (سورة البينة).

وذكر في الإتقان أنها سميت في مصحف أُبيٍّ (سورة أهل الكتاب) أي لقوله ـتعالىـ: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وسميت سورة (البرية) وسميت (سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء.

واختلف في أنها مكية أو مدنية، قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين.

وعن ابن الزبير وعطاء بن يسار هي مدنية.

وعكس القرطبي فنسب القول بأنها مدنية إلى الجمهور وابن عباس، والقول

بأنها مكية إلى يحيى بن سلام.

وأخرج ابن كثير عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبي حبة البدري قال: «لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها قال جبريل: **يا رسول الله إن الله يأمرك أن تقرئها أبياً**» الحديث.

أي وأبي من أهل المدينة.

وجزم البغوي، وابن كثير بأنها مدنية، وهو الأظهر؛ لكثرة ما فيها من تخطئة أهل الكتاب، ولحديث أبي حبة البدري، وقد عدها جابر بن زيد في عداد السور المدنية، قال ابن عطية: «إن النبيﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة».

وقد عدت المائة وإحدى في ترتيب النزول نزلت بعد سورة الطلاق، وقبل سورة الحشر، فتكون نزلت قبل غزوة بني النضير، وكانت غزوة النضير سنة أربع في ربيع الأول؛ فنزول هذه السورة آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع.

وعدد آياتها ثمان عند الجمهور، وعدها أهل البصرة تسع آيات.

٤٦٨-٤٦٧/٣٠

٢- **أغراضها**: توبيخُ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسولﷺ.

والتعجيبُ من تناقض حالهم؛ إذ هم ينتظرون أن تأتيَهم البينةُ، فلما أتتهم البينةُ كفروا بها.

وتكذيبُهم في ادعائهم أن اللهَ أوجب عليهم التمسكَ بالأديان التي هم عليها.

ووعيدُهم بعذابِ الآخرة، والتسجيلُ عليهم بأنهم شرُّ البرية.

والثناءُ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وَوَعْدُهُم بالنعيم الأبدي ورضى

اللهِ عنهم، وإعطائه إياهم ما يرضيهم.

وتخلل ذلك تنويهٌ بالقرآن، وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ من قبل وما فيه من فضل وزيادة. ٤٦٨/٣٠

٣ـ قال ـتعالى ـ: ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾.

وقد تعددت أقوال المفسرين، فبلغت بضعة عشر قولاً ذكر الآلوسي أكثرها، وذكر القرطبي معظمها غير معزو، وتداخل بعض ما ذكره الآلوسي، وزاد أحدهما ما لم يذكره الآخر.

ومراجع تأويل الآية تؤول إلى خمسة:

الأول: تأويل الجملة بأسرها بأن يؤول الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب، وإلى هذا ذهب الفراء، ونفطويه، والزمخشري.

الثاني: تأويل معنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بمعنى الخروج عن إمهال الله إياهم، ومصيرهم إلى مؤاخذتهم، وهو لابن عطية.

الثالث: تأويل متعلق ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بأنه عن الكفر وهو لعبدالجبار، أو عن الاتفاق على الكفر وهو للفخر وأبي حيان، أو منفكين عن الشهادة للرسول ﷺ بالصدق قبل بعثته وهو لابن كيسان عبدالرحمن الملقب بالأصم، أو منفكين عن الحياة، أي هالكين، وعزي إلى بعض اللغويين.

الرابع: تأويل ﴿حَتَّى﴾ أنها بمعنى (إنْ) الاتصالية، والتقدير: وإن جاءتهم البينة.

الخامس: تأويل ﴿رَسُولٌ﴾ بأنه رسول من الملائكة يتلو عليهم صحفاً من عند الله، فهو في معنى قوله -تعالى-: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنْ السَّمَاءِ﴾.

وعزاه الفخر إلى أبي مسلم، وهو يقتضي صرف الخبر إلى التهكم.

هذا والمراد بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أنهم كفروا برسالة محمدﷺ مثل ما في قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

وأنت لا يعوزك إرجاعُ أقوال المفسرين إلى هذه المعاقد، فلا نحتاج إلى التطويل بذكرها؛ فدونك فراجعها إن شئت؛ فبنا أن نهتم بتفسير الآية على الوجه البين.

إن هذه الآيات وردت مَوْرِدَ إقامةِ الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين بأنهم متنصلون من الحق، متعللون للإصرار على الكفر عناداً؛ فلنسلك بالخبر مسلك مورد الحجة، لا مسلك إفادة النسبة الخبرية؛ فتعين علينا أن نصرف التركيب عن استعمال ظاهره إلى استعمال مجازي على طريقة المجاز المرسل المركب من قبيل استعمال الخبر في الإنشاء، والاستفهام في التوبيخ، ونحو ذلك الذي قال فيه التفتزاني في المطول: إن بيان أنه من أي أنواع النجاز هو مما لم يَحُمْ أحدٌ حوله، والذي تصدى السيد الشريف لبيانه بما لا يبقي فيه شبهة.

فهذا الكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها؛ فهو من الحكاية لما كانوا يعدون به فهو حكاية بالمعنى كأنه

قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة، وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجيب أو الشكاية من صلف المخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع وقريب منه قوله -تعالى-: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ إذ عبر بصيغة يحذر، وهم إنما تظاهروا بالحذر، ولم يكونوا حاذرين حقاً؛ ولذلك قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ اسْتَهْزِئُوا﴾.

فالخبر موجَّهٌ لكل سامع، ومضمونه قول: «كان صدر من أهل الكتاب، واشتهر عنهم، وعرفوا به وتقرر تعلل المشركين به لأهل الكتاب حين يدعونهم إلى اتباع اليهودية أو النصرانية، فيقولوا: لم يأتنا رسول كما أتاكم قال -تعالى-: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾.

وتقرر تعلل أهل الكتاب به حين يدعوهم النبي ﷺ للإسلام، قال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ الآية.

وشيوعه عن الفريقين قرينة على أن المراد من سياقه دمغهم بالحجة، وبذلك كان التعبير بالمضارع المستقبل في قوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ مصادفاً المَحزَّ؛ فإنهم كانوا يقولون ذلك قبل مجيء الرسول ﷺ.

وقريب منه قوله -تعالى- في أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وحاصل المعنى : أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة ، أي العلامة التي وعدنا بها.

وقد جعل ذلك تمهيداً وتوطئة لقوله بعده: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ الخ.

وإذ اتضح موقع هذه الآية ، وانقشع أشكالها فلننتقل إلى تفسير ألفاظ الآية.

٣٠/٤٧٠ـ٤٧٢

سورة الزلزلة

١ـ **سميت هذه السورة في كلام الصحابة سورة** ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ روى الواحدي في أسباب النزول عن عبد الله بن عمرو: «نَزَلَتْ إذا زلزلت وأبو بكر قاعد فبكى» الحديث[١].

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً عند الترمذي ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ تعدل نصف القرآن، وكذلك عنونها البخاري، والترمذي.

وسميت في كثير من المصاحف، ومن كتب التفسير (سورة الزلزال).

وسميت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان (زلزلت) وكذلك سماها في الإتقان في السور المختلف في مكان نزولها، وكذلك تسميتها في تفسير ابن عطية، ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم؛ فكأنه لم ير هذه ألقاباً لها، بل جعلها حكاية بعض ألفاظها، ولكن تسميتها سورة الزلزلة تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها.

واختلف فيها، فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وعطاء، والضحاك: هي مكية، وقال قتادة، ومقاتل: مدنية، ونسب إلى ابن عباس ـأيضاًـ.

والأصح أنها مكية، واقتصر عليه البغوي، وابن كثير، ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم.

وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية، ولعله يعني: جابر بن عبد الله الصحابي؛

١ـ تمامه: فقال له رسول الله ﷺ: **«ما يبكيك يا أبا بكر»**؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال النبي ﷺ: **«لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»**.

لأن المعروف عن جابر بن زيد أنها مدنية؛ فإنها معدودة في نزول السور المدنية فيما روي عن جابر بن زيد.

وقال ابن عطية: «آخرها وهو ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ الآية نزل في رجلين كانا بالمدينة» اهـ.

وستعلم أنه لا دلالة فيه على ذلك.

وقد عدت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور فيما روي عن جابر بن زيد، ونظمه الجعبري وهو بناء على أنها مدنية جعلها بعد سورة النساء، وقبل سورة الحديد.

وعدد آيها تسع عند جمهور أهل العدد، وعدها أهل الكوفة ثماني؛ للاختلاف في أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ آيتان أو آية واحدة. ٣٠/٤٨٩-٤٩٠

٢- **أغراضها:** إثباتُ البعثِ، وذكرُ أشراطِه، وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع.

وحضورُ الناس للحشر، وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر، وهو تحريضٌ على فعل الخير، واجتناب الشر. ٣٠/٤٩٠

٣- **والتعريف في ﴿الإِنسَانُ﴾**: تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي وقال الناس: ما لها، أي الناس الذين هم أحياء، ففزعوا، وقال بعضهم لبعض، أو قال كل أحد في نفسه حتى استوى في ذلك الجبان والشجاع، والطائش والحكيم؛ لأنه زلزال تجاوز الحد الذي يصبر على مثله الصبور. ٣٠/٤٩١

٤ - قال -تعالى-: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرّاً يَرَه (٨) ﴾.

وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم، وقد وصفها النبيﷺ بالجامعة الفاذة ففي الموطأ أن النبيﷺ قال: «**الخيل لثلاثة**» الحديث، فسئل عن الحمر فقال: «**لم ينزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة:** ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾.

وعن عبدالله بن مسعود أنه قال: «**هذه أحكم آية في القرآن**».

وقال الحسن: قدم صعصعة بن ناجية جد الفرزدق على النبيﷺ يستقرئ النبي القرآن، فقرأ عليه هذه الآية فقال صعصعة: «حسبي؛ فقد انتهت الموعظة لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها».

وقال كعب الأحبار لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾.

وإذ قد كان الكلام مسوقاً للترغيب والترهيب معاً أُوثِرَ جانب الترغيب بالتقديم في التقسيم؛ تنويهاً بأهل الخير. ٤٩٥/٣٠

سورة العاديات

١ـ **سميت في المصاحف القيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية** (سورة العاديات) بدون واو، وكذلك في بعض التفاسير؛ فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه.

وسميت في بعض كتب التفسير (سورة والعاديات) بإثبات الواو.

واختلف فيها، فقال ابن مسعود، وجابر بن زيد، وعطاء، والحسن، وعكرمة: هي مكية، وقال أنس بن مالك، وابن عباس، وقتادة: هي مدنية.

وعدت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد بناءً على أنها مكية نزلت بعد سورة العصر، وقبل سورة الكوثر.

وآيها إحدى عشرة.

ذكر الواحدي في أسباب النزول عن مقاتل وعن غيره أن رسول الله ﷺ بعث خيلاً سرية إلى بني كنانة، وأمر عليها المنذر بن عمرو الأنصاري؛ فأسهبت ـأي أمعنت في سهب، وهي الأرض الواسعةـ شهراً وتأخر خيرهم[1] فأرجف المنافقون وقالوا: قتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ الآيات؛ إعلاماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات.

وهذا الحديث قال في الإتقان: «رواه الحاكم وغيره».

وقال ابن كثير: «روى أبو بكر البزار هنا حديثاً غريباً جداً» وساق الحديث قريباً مما للواحدي.

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: خبرهم. (م).

وأقول غرابة الحديث لا تناكد قبوله، وهو مروي عن ثقات إلا أن في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف؛ فالراجح أن السورة مدنية. ٤٩٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: ذمُّ خصالٍ تُفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصالٌ غالية على المشركين والمنافقين، ويراد تحذير المسلمين منها.

ووعظُ الناسِ بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت؛ ليتذكره المؤمن، ويُهَدَّد به الجاحد.

وأُكِّد ذلك كلُّه بأن اُفتُتِحَ بالقسم، وأُدْمِج في القسم التنويهُ بخيل الغزاة، أو رواحل الحجيج. ٤٩٨/٣٠

٣ـ **والضبح**: اضطراب النفس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، وهو من أصوات الخيل والسباع.

وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح أح أح.

وعن ابن عباس: «ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس، والكلب، والثعلب».

وهذا قول أهل اللغة، واقتصر عليه في القاموس.

روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: «بينما أنا جالس في الحجر جاءني رجل فسألني عن ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألت عنها أحد قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل تغزو في سبيل الله، قال اذهب فادعه لي، فلما وقفت عند رأسه، قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله

لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرسٌ للزبير، وفرسٌ للمقداد؛ فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى يعني بذلك أن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي أوله غزوة بدر، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي».

وليس في قول علي رضي الله عنه تصريح بأنها مكية ولا مدنية، وبمثل ما قال علي، قال ابن مسعود، وإبراهيم، ومجاهد، وعبيد بن عمير. ٣٠/٤٩٨-٤٩٩

٤- **والضبح** لا يطلق على صوت الإبل في قول أهل اللغة؛ فإذا حمل ﴿الْعَادِيَاتِ﴾ على أنها الإبل، فقال المبرد وبعض أهل اللغة: «من جعلها للإبل جعل ﴿ضَبْحاً﴾ بمعنى ضبعاً، يقال: ضبحت الناقة في سيرها وضبعت، إذا مدت ضبعيها في السير».

وقال أبو عبيدة: «ضبحت الخيل وضبعت إذا عدت، وهو أن يمد الفرس ضبعيه إذا عدا» أي فالضبح لغة في الضبع وهو من قلب العين حاء.

قال في الكشاف «وليس بثبت».

ولكن صاحب القاموس اعتمده وعلى تفسير (العاديات) بأنها الإبل يكون الضبح استعير لصوت الإبل، أي من شدة العدو قويت الأصوات المترددة في حناجرها حتى أشبهت ضبح الخيل، أو أريد بالضبح الضبع على لغة الإبدال. ٣٠/٤٩٩

٥- وإذا فسر ﴿الْمُغِيرَاتِ﴾ بالإبل المسرعات في السير، فالمراد: دفعها من مزدلفة إلى منى صباح يوم النحر وكانوا يدفعون بكرة عندما تشرق الشمس على

ثبير، ومن أقوالهم في ذلك: «أشْرِقْ ثبير كيما نغير».

و﴿ أَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾: أصعدن الغبار من الأرض من شدة عدوهن، والإثارة: الإهاجة، والنقع: الغبار. ٣٠/٥٠٠ـ٥٠١

٦ـ **ومن بديع النظم وإعجازه إيثار كلمات «العاديات وضبحاً، والموريات وقدحاً، والمغيرات وصبحاً، ووسطن وجمعاً»** دون غيرها؛ لأنها برشقاتها[1] تتحمل أن يكون المقسم به خيل الغزو، ورواحل الحج. ٣٠/٥٠١

٧ـ **والكنود**: وصف من أمثلة المبالغة من كند، ولغات العرب مختلفة في معناه؛ فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي، والمعنى: الشديد الكفران لله.

والتعريف في ﴿ الإِنسَانَ ﴾ تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفران نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء، وكُمَّلُ أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية، وتذكُّرُ حقِّ غيره.

وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته. ٣٠/٥٠٢ـ٥٠٣

١ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: برشاقتها. (م).

سورة القارعة

١ـ **اتفقت المصاحف، وكتب التفسير، وكتب السنة على تسمية هذه السورة (سورة القارعة)** ولم يُرْوَ شيء في تسميتها من كلام الصحابة والتابعين.

واتفق على أنها مكية.

وعدت الثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة.

وآيها عشر في عد أهل المدينة وأهل مكة، وثمان في عد أهل الشام والبصرة، وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة. ٥٠٩/٣٠

٢ـ **أغراضُها**: ذُكِرَ فيها إثباتُ وقوعِ البعث، وما يسبق ذلك من الأهوال.

وإثباتُ الجزاءِ على الأعمال، وأن أهلَ الأعمالِ الصالحة المعتبرةِ عند الله في نعيم، وأهلَ الأعمالِ السيئةِ التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم. ٥٠٩/٣٠

٣ـ في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾.

والمقصود بهذا التوقيت زيادةُ التهويل بما أضيف إليه ﴿يَوْمَ﴾ من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم، وإذ قد كان هذا الحال الموقت بزمانه غير معلوم مداه ـ كان التوقيت له إطماعاً في تعيين وقت حصوله؛ إذ كانوا يسألون متى هذا الوعد، ثم توقيته بما هو مجهول لهم إبهاماً آخر للتهويل والتحذير من مفاجأته، وأُبْرِزَ في صورة التوقيت للتشويق إلى البحث عن تقديره، فإذا باءَ الباحث بالعجز عن أخذٍ بحيطة الاستعداد؛ لحلوله

بما ينجيه من مصائبه التي قرعت به الأسماع في آي كثيرة.

فحصل في هذه الآية تهويلٌ شديدٌ بثمانية طرق: وهي الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بِكُنْه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقال الإضمار ثاني مرة، والتوقيت بزمان مجهول حصوله وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة. ٣٠/٥١١ـ٥١٢

٤ـ وقوله: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾: إخبار عنه بالشقاء وسوء الحال، فالأم هنا يجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها.

وهاوية: هالكة، والكلام تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر؛ لشدة محبتها ابنَها؛ فهي أشد سروراً بسروره، وأشد حزناً بما يحزنه.

صلى أعرابي وراء إمام فقرأ الإمام: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ فقال الأعرابي: «لقد قرَّت عين أم إبراهيم».

ومنه قول ابن زيابة حين تهدده الحارث بن همام الشيباني:

يا لهف زيابة للحارث الصا ... بح فالغانم فالآيب

ويقولون في الشر: هوت أمه، أي أصابه ما تهلك به أمه، وهذا كقولهم: ثكلته أمه، في الدعاء، ومنه ما يستعمل في التعجب وأصله الدعاء كقول كعب ابن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار:

هوت أمه ما يبعث الصبح غادياً ... وماذا يرد الليل حين يؤوب

أي ماذا يبعث الصبح منه غادياً، وما يرد الليل حين يؤوب غانماً، وحذف منه

في الموضعين؛ اعتماداً على قرينة رفع الصبح والليل وذكر: غادياً ويؤوب و(من) المقدرة تجريدية، فالكلام على التجريد مثل: لقيت منه أسداً.

فاستعمل المركب الذي يقال عند حال الهلاك وسوء المصير في الحالة المشبهة بحال الهلاك، ورمز إلى التشبيه بذلك المركب، كما تضرب الأمثال السائرة.

ويجوز أن يكون ﴿أُمُّهُ﴾ مستعاراً لمقره ومآله؛ لأنه يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمه.

و﴿هَاوِيَةٌ﴾ المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك يقال: سقط في الهاوية.

وأريد بها جهنم، وقيل: هي اسم لجهنم، أي فمأواه جهنم.

ويجوز أن يكون ﴿أُمُّهُ﴾ على حذف مضاف، أي أم رأسه وهي أعلى الدماغ، وهاوية: ساقطة من قولهم: سقط على أم رأسه، أي هلك. ٣٠/٥١٤_٥١٥

سورة التكاثر

١ ـ قال الآلوسي أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها (المقبرة)» اهـ.

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير (سورة التكاثر) وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وهي كذلك معنونة في بعض المصاحف العتيقة بالقيروان.

وسميت في بعض المصاحف: (سورة ألهاكم) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وهي مكية عند الجمهور قال ابن عطية: «هي مكية لا أعلم فيها خلافاً».

وعن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أنها نزلت في مفاخرة جرت بين بني عبدمناف وبني سهم في الإسلام ـكما يأتي قريباًـ وكانوا من بطون قريش بمكة، ولأن قبور أسلافهم بمكة.

وفي الإتقان: المختار أنها مدنية، قال: ويَدَلُّ له ما أخرجه ابن أبي حاتم أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا، وما أخرجه البخاري عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

قال أُبيٌّ: «كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾» اهـ.

يريد المستدل بهذا أن أبياً أنصاريٌّ، وأن ظاهرَ قوله: «حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾» أنها نزلت بعد أن كانوا يعدون «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب الخ من القرآن**».

وليس في كلام أُبيٍّ دليل ناهض؛ إذ يجوز أن يريد بضمير (كنا) المسلمين، أي كان من سبق منهم يعد ذلك من القرآن حتى نزلت سورة التكاثر وبين لهم النبي ﷺ أن ما كانوا يقولونه ليس بقرآن.

والذي يظهر من معاني السورة، وغلظةِ وعيدها أنها مكية، وأن المخاطب بها فريق من المشركين؛ لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين أيامئذ.

وسبب نزولها -فيما قاله الواحدي والبغوي عن مقاتل والكلبي والقرطبي عنهما وعن ابن عباس-: أن بني عبدمناف وبني سهم من قريش تفاخروا، فتعادّوا السادة والأشراف من أيهم أكثر عدداً؛ فكثر بنو عبدمناف بني سهم ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور؛ فعدوا القبور؛ فَكَثَرَهم بنو سهم بثلاثة أبيات؛ لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة الجرمي قال: نزلت في قبيلتين من الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا بالأحياء ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور؛ فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان، تشير إلى القبر، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾.

وقد عدت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور، ونزلت بعد سورة الكوثر، وقبل سورة الماعون؛ بناءً على أنها مكية.

وعدد آياتها ثمان. ٣٠/٥١٧ـ٥١٨

٢ـ **أغراضها**: اشتملت على التوبيخِ على اللهو عن النظرِ في دلائل القرآن، ودعوة الإسلامِ بإيثار المال، والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدمِ الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار مَنْ كان قبلَهم، وعلى الوعيد على ذلك.

وحثهم على التدبر فيما يُنْجِيهم من الجحيم.

وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم. ٥١٨/٣٠

٣ـ في قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ﴾ غاية؛ فيحتمل أن يكون غاية لفعل ﴿أَلْهَاكُمْ﴾ كما في قوله ـتعالىـ: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أي دام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي استمر بكم طول حياتكم؛ فالغاية مستعملة في الإحاطة بأزمان المُغَيَّا لا في تنهيته، وحصول ضده؛ لأنهم إذا صاروا إلى المقابر انقطعت أعمالهم كلها.

ولكون زيارة المقابر على هذا الوجه عبارة عن الحلول فيها، أي قبور المقابر ـوحقيقة الزيارة الحلول في المكان حلولاً غير مستمرـ فأطلق فعل الزيارة هنا؛ تعريضاً بهم بأن حلولهم في المقابر يعقبهم خروجٌ منها.

والتعبير بالفعل الماضي في ﴿زُرْتُمْ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي؛ لأنه محقق وقوعه مثل قوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾.

ويحتمل أن تكون الغاية للمتكاثر به الدال عليه التكاثر، أي بكل شيء حتى بالقبور تعدونها.

وهذا يجري على ما روى مقاتل والكلبي أن بني عبدمناف وبني سهم تفاخروا بكثرة السادة منهم، كما تقدم في سبب نزولها آنفاً، فتكون الزيارة مستعملة في معناها الحقيقي، أي زرتم المقابر؛ لتعدوا القبور، والعرب يكنون بالقبر عن صاحبه، قال النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجلق ... وقبر بصيداء الذي عند حاربِ

وقال عصام بن عبيد الزماني، أو همام الرَّقَاشي:

لـو عـدَّ قـبر وقـبر كنـت أقـربهـم قـبراً وأبعـدهم مـن منـزل الـذام

أي كنت أقربهم منك قبراً، أي صاحب قبر.

والمقابر جمع مقبرة بفتح الموحدة وبضمها، والمقبرة الأرض التي فيها قبور كثيرة. ٣٠/٥٢٠-٥٢١

سورة العصر

١ـ ذكر ابن كثير أن الطبراني روى بسنده عن عبيدالله بن حصين قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر» الخ ما سيأتي.

وكذلك تسميتها في مصاحف كثيرة، وفي معظم كتب التفسير، وكذلك هي في مصحف عتيق بالخط الكوفي من المصاحف القيروانية في القرن الخامس.

وسميت في بعض كتب التفسير، وفي صحيح البخاري (سورة العصر) بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها، أي سورة هذه الكلمة.

وهي مكية في قول الجمهور، وإطلاق جمهور المفسرين، وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنها مدنية، وروي عن ابن عباس، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور المختلف فيها.

وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الانشراح، وقبل سورة العاديات.

وآيها ثلاث آيات.

وهي إحدى سور ثلاث هن أقصر السور عدد آيات: هي، والكوثر، وسورة النصر. ٥٢٧/٣٠

٢ـ **أغراضها**: واشتملت على إثباتِ الخسرانِ الشديدِ لأهل الشرك، ومَنْ كان مِثلَهم مِنْ أهلِ الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوتُه، وكذلك مَنْ تقلَّد أعمالَ الباطلِ التي حذر الإسلامُ المسلمين منها.

وعلى إثبات نجاةِ وفوزِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والداعين منهم إلى الحق.

وعلى فضيلةِ الصبرِ على تزكية النفس ودعوةِ الحق.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم، روى الطبراني بسنده إلى عبيدالله بن عبدالله بن الحصين الأنصاري -من التابعين- أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر -أي سلام التفرق- وهو سنة -أيضاً- مثل سلام القدوم».

وعن الشافعي: «لو تدبَّرَ الناسُ هذه السورةَ لَوَسعتهم».

وفي رواية عنه: «لو لم ينزلْ إلى الناس إلا هي لكفتهم».

وقال غيره: «إنها شملت جميع علوم القرآن» وسيأتي بيانه. ٥٢٧/٣٠-٥٢٨

٣- **وللعصر معانٍ** يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتعين إما بإضافته إلى ما يقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد.

وأَيّاً مَا كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله -تعالى- في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركةٍ مثل الصلاة المخصوصة، أو عصر معين مبارك.

وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس؛ فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند

زوال الشمس، ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مِثْلَيْ قَدْرِهِ بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس، وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي، ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القنـ ـاص عصراً وقد دنا الإمساء

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم، وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى، وبالليل، والنهار، وبالفجر، من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكِّر بحكمة نظام المجتمع الإنساني، وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل، ونظام لابتدائه وانقطاعه، وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم؛ لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم؛ وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عصر.

ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العصر؛ وهي صلاةٌ معظمة.

قيل: هي المراد بالوسطى في قوله -تعالى-: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾.

وجاء في الحديث: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**».

وورد في الحديث الصحيح: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة**» فذكر «**ورجلٌ**

حلف يميناً فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يعط».

وتعريفه على هذا تعريف العهد، وصار علماً بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام مثل العقبة.

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس، أو ملك، أو نبي، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية؛ فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا، ويكون المعني به عصر النبي ﷺ والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري مثل التعريف في (اليوم) من قولك: فعلت اليوم كذا؛ فالقسم به كالقسم بحياته في قوله -تعالى-: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قال الفخر: «فهو -تعالى- أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله -تعالى-: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾». اهـ.

ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم، وقد مثل النبي ﷺ عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله: «**مثل المسلمين، واليهود، والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له يوماً إلى الليل، فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قالوا لا حاجة لنا إلى أجرك وما عملنا باطل، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا، واستأجر قوماً أن يعملوا بقية يومهم، فعملوا حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما فأنتم هم**».

فلعل ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإسلام في هذه الآية.

ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله، فقال ابن عطية: «قال أبي ابن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن العصر فقال: «**أقسم ربكم بآخر النهار**».

وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر.

ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة؛ فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام بين من كفر به، ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت.

أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعضِ الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام بنسخه، مثل: اليهودية، والنصرانية.

قال ـتعالى ـ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ في سورة آل عمران. ٣٠/٥٢٨ـ٥٣٠

٤ـ **ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها**؛ فمن تحقق فيه وصف الإيمان، ولم يعمل السيئات أو عملها وتاب منها فقد تحقق له ضد الخسران وهو الربح المجازي، أي حسن عاقبة أمره، وأما من لم يعمل الصالحات، ولم يتب من سيئاته فقد تحقق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران.

وهذا الخسر متفاوت؛ فأعظمه وخالده الخسر الْمُنْجَرُّ عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول ﷺ ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها، وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحش وهو ما فسر به

قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾. ٣٠/٥٣١-٥٣٢

٥- **وتنكير ﴿ خُسْرٍ ﴾** يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيداً للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم. ٣٠/٥٣٢

٦- **وعُطف على عمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر** وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام للاهتمام به؛ لأنه قد يُغْفَلُ عنه يُظَنُّ أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته؛ فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره، ودعوته إلى الحق؛ فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدي وعقائد الصواب، وإراضة النفس على فهمها بفعل المعروف وترك المنكر.

والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام -أيضاً- وإن كان خصوصه خصوصاً من وجه؛ لأن الصبر تحمل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق. ٣٠/٥٣٢-٥٣٣

٧- **ومن الصبرِ الصبرُ على** ما يلاقيه المسلم إذا أمر بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به، أو من أذاهم بالقول كمن يقول لآمره: هلا نظرت في أمر نفسك، أو نحو ذلك.

وأما تحمل مشقة فعل المنكرات كالصبر على تجشم السهر في اللهو والمعاصي، والصبر على بشاعة طعم الخمر لشاربها - فليس من الصبر؛ لأن ذلك التحمل منبعث عن رجحان اشتهاء تلك المشقة على كراهية المشقة التي تعترضه في تركها. ٣٠/٥٣٣

٨- **والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها**، فإن الارتياض بالأخلاق

الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة؛ ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، كما قال عمرو بن العاص:

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمما

فيوشك أن تلفى له الدهر سبةٌ ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما يميل إليه، وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**».

وعن علي بن أبي طالب: «الصبر مطية لا تكبو». ٣٠/٥٣٣-٥٣٤

٩- **وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر** أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوع التآمر بهما ديدناً لهم، وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته؛ لما يقتضيه عرف الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقاً بالملازمة؛ إذ قل أن يقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله، أو أمر بصبر وهو ذو جزع، وقد قال -تعالى- توبيخاً لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وقد تقدم هذا المعنى عند قوله -تعالى-: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ في سورة الفجر. ٣٠/٥٣٤

سورة الهمزة

١ـ **سميت** هذه السورة في المصاحف، ومعظم التفاسير (سورة الهمزة) بلام التعريف، وعنونها في صحيح البخاري وبعض التفاسير (سورة ويل لكل همزة) وذكر الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز أنها تسمى (سورة الحطمة) لوقوع هذه الكلمة فيها.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة القيامة، وقبل سورة المرسلات.

وآيها تسع بالاتفاق.

روي أنها نزلت في جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم للمز المسلمين، وسبهم، واختلاق الأحدوثات السيئة عنهم.

وسمي من هؤلاء المشركين: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وجميل بن معمر بن بني جمح ـوهذا أسلم يوم الفتح وشهد حنيناًـ والعاص بن وائل من بني سهم.

وكلهم من سادة قريش، وسمي الأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق الثقفيان من سادة ثقيف أهل الطائف.

وكل هؤلاء من أهل الثراء في الجاهلية، والازدهاء بثرائهم وسؤددهم.

وجاءت آية السورة عامة؛ فعم حُكْمُها المسمَّيْنَ ومن كان على شاكلتهم من المشركين، ولم تذكر أسماءهم. ٥٣٥/٣٠

٢ـ **أغراضها:** فَغَرَضُ هذه السورةِ وعيدُ جماعةٍ من المشركين جعلوا هَمْزَ المسلمين ولَمْزَهُمْ ضرباً من ضروب أذاهم؛ طمعاً في أن يلجئهم المللُ من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام، والرجوع إلى الشرك. ٥٣٥/٣٠ـ٥٣٦

٣ـ **وهُمَزَة:** وصف مشتق من الهمز، وهو أن يعيب أحدٌ أحداً بالإشارة بالعين، أو بالشدق، أو بالرأس بحضرته، أو عند توليه، ويقال: هامز وهماز، وصيغة فُعَلَة يدل على تمكن الوصف من الموصوف. ٥٣٧/٣٠

٤ـ **ولمزة:** وصف مشتق من اللمز وهو المواجهة بالعيب، وصيغته دالة على أن ذلك الوصف ملكة لصاحبه كما في هُمزة.

وهذان الوصفان من معاملة أهل الشرك للمؤمنين يومئذ، ومن عامل من المسلمين أحداً من أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من هذا الوعيد.

فمن اتصف بشيء من هذا الخلق الذميم من المسلمين مع أهل دينه فإنها خصلة من خصال أهل الشرك.

وهي ذميمة تدخل في أذى المسلم، وله مراتب كثيرة بحسب قوة الأذى وتكرره، ولم يعد من الكبائر إلا ضرب المسلم، وسب الصحابة ـرضي الله عنهمـ وإدمان هذا الأذى بأن يتخذه ديدناً؛ فهو راجع إلى إدمان الصغائر، وهو معدود من الكبائر. ٥٣٧/٣٠

٥ـ **ومعنى إيصادها عليهم:** ملازمة العذاب، واليأس من الإفلات منه كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن تمثيلُ تقريبٍ؛ لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس، وحالُ عذابِ جهنمَ أشدُّ مما يبلغه تصور العقول المعتاد. ٥٤١/٣٠

٦ـ وقوله: ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ حال: إما من ضمير ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في حال كونهم في عمد، أي موثوقين في عمد كما يوثق المسجون المغلظ عليه من رجليه في فلقة ذات ثقب يدخل في رجله، أو في عنقه كالقرام، وإما حال من ضمير ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي أن النار الموقدة في عمد، أي متوسطة عمداً كما تكون نار الشواء؛ إذ توضع عمد، وتجعل النار تحتها؛ تمثيلاً لأهلها بالشواء. ٣٠/٥٤١ـ٥٤٢

سورة الفيل

١ـ **وردت تسميتها** في كلام بعض السلف سورة (أَلَمْ تَرَ) روى القرطبي في تفسير (سورة قريش) عن عمرو بن ميمون قال: صليت المغرب خلف عمر ابن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية (أَلَمْ تَرَ) و(لإِيلافِ قُرَيْشٍ).

وكذلك عنونها البخاري، وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير (سورة الفيل).

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وقبل (سورة الفلق).

وقيل: قبل (سورة قريش) لقول الأخفش إن قوله ـتعالى ـ: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ولأن أبي بن كعب جعلها وسورة قريش سورة واحدة في مصحفه، ولم يفصل بينهما بالبسملة، ولخبر عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب المذكور آنفاً روى أن عمر بن الخطاب قرأ مرة في المغرب في الركعة الثانية سورة الفيل وسورة قريش، أي ولم يكن الصحابة يقرأون في الركعة من صلاة الفرض سورتين؛ لأن السنة قراءة الفاتحة وسورة؛ فدل أنهما عنده سورة واحدة.

ويجوز أن تكون سورة قريش نزلت بعد سورة الفلق، وألحقت بسورة الفيل، فلا يتم الاحتجاج بما في مصحف أبي بن كعب، ولا بما رواه عمرو بن ميمون.

وآيها خمس. ٥٤٣/٣٠

٢ـ **أغراضها**: وقد تضمنت التذكيرَ بأن الكعبةَ حرمُ الله، وأن اللهَ حَمَاه من

أرادوا به سوءاً أو أظهر غَضَبَهُ عليهم، فعذبهم؛ لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيمَ، وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيداً، وليكون ما حل بهم تذكرةً لقريش بأن فاعلَ ذلك هو ربُّ ذلك البيتِ، وأنْ لا حظَّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.

وتنبيهَ قريشٍ، أو تذكيرَهُمْ بما ظهر من كرامةِ النبي ﷺ عند الله؛ إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.

ومن وراء ذلك تثبيتُ النبي ﷺ بأن اللهَ يَدْفَعُ عنه كيدَ المشركين، فإن الذي دَفَعَ كيدَ مَنْ يكيد لبيته لأَحَقُّ بأن يدفع كيدَ مَنْ يكيد لرسوله ﷺ ودينه، ويشعر بهذا قوله ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

ومن وراء ذلك كلِّه التذكيرُ بأن اللهَ غالبٌ على أمره، وأن لا تغرَّ المشركين قُوَّتُهم، وَوَفْرَةُ عددهم، ولا يوهنَ النبي ﷺ تألُّبَ قبائِلهم عليه؛ فقد أهلك الله من هو أشدُّ منهم قوةً وأكثرُ جمعاً.

ولم يتكرر في القرآن ذِكْر إهلاكِ أصحاب الفيل خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: **أحدهما:** أن إهلاكَ أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسولٍ من الله.

وثانيهما: أن لا يَتَّخِذَ منه المشركون غروراً بمكانةٍ لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله -تعالى-: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾. ٣٠/٥٤٣-٥٤٤

سورة قريش

١ ـ **سميت هذه السورة في عهد السلف** (سورة لإيلاف قريش) قال عمرو ابن ميمون الأودي: «صلى عمر بن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الثانية (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ) و(لِإِيلافِ قُرَيْشٍ)».

وهذا ظاهر في إرادة التسمية، ولم يعدها في الإتقان في السور التي لها أكثر من اسم.

وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة قريش) لوقوع اسم قريش فيها، ولم يقع في غيرها، وبذلك عنونها البخاري في صحيحه.

والسورة مكية عند جماهير العلماء، وقال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن الكلبي والضحاك أنها مدنية، ولم يذكرها في الإتقان مع السور المختلف فيها.

وقد عدت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة التين وقبل سورة القارعة.

وهي سورة مستقلة بإجماع المسلمين على أنها سورة خاصة.

وجعلها أبي بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة، ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب.

والإجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك.

وعدد آياتها أربع عند جمهور العادين، وعدها أهل مكة والمدينة خمس آيات.

ورأيت في مصحف عتيق من المصاحف المكتوبة في القيروان عددها أربع آيات مع أن قراءة أهل القيروان قراءة أهل المدينة. ٥٥٣/٣٠

٢ـ **أغراضها**: أَمْرُ قريشٍ بتوحيد الله ـتعالى ـ بالربوبية؛ تذكيراً لهم بنعمةِ أن اللهَ مكَّن لهم السَير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدو عليهم.

وبأنه أَمَّنهم من المجاعات، وأمنَّهم من المخاوف؛ لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم؛ لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة.

وبما أَلْهَمَ الناسَ من جلب المِيْرَةِ إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة.

ورد القبائل، فلا يغير على بلدهم أحد قال ـتعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ فأكسبهم ذلك مهابةً في نفوس الناس وعطفاً منهم. ٥٥٤/٣٠

٣ـ **افتتاح مبدع**؛ إذ كان بمجرور بلام التعليل وليس بإثره بالقرب ما يصلح للتعليق به؛ ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور، وزاده الطول تشويقاً؛ إذ فصل بينه وبين متعلَّقه ـبالفتح ـ بخمس كلمات، فيتعلق ﴿ لإِيلافِ ﴾ بقوله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾.

وتقديم هذا المجرور للاهتمام به؛ إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام والمجرور متعلق بفعل (ليعبدوا).

وأصل نظم الكلام: (لتعبد قريش رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف؛ لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف».

فلما اقتضى قصد الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله تولَّد من تقديمه معنى جعله شرطاً لعامله، فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط؛ فالفاء

الداخلة في قوله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص، وعناية قوية هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع. ٥٥٥_٥٥٤/٣٠

٤ـ **وقريش**: لقب الجد الذي يجمع بطوناً كثيرةً وهو فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة.

هذا قول جمهور النسابين وما فوق فهر فهم من كنانة، ولُقِّب فهر بلقب قريش بصيغة التصغير، وهو على الصحيح تصغير قَرْش ـبفتح القاف، وسكون الراء، وشين معجمةـ اسم نوع من الحوت قوي يعدو على الحيتان، وعلى السفن.

وقال بعض النسابين: إن قريشاً لقب النضر بن كنانة، وروي عن النبيﷺ: «أنه سئل من قريش؟ فقال: **«من ولد النضر»**.

وفي رواية أنه قال: «**إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفوا أُمَّنا ولا ننتفي من أبينا**».

فجميع أهل مكة هم قريش وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم، وكانت بنو كنانة بخَيْف منى، ولهم مناصب في أعمال الحج خاصة منها النسيء. ٥٥٦/٣٠

٥ـ **والسَّنَةُ بالتحقيق أربعة فصول**: الصيف: ثلاثة أشهر، وهو الذي يسميه أهل العراق وخراسان الربيع، ويليه القيظ ثلاثة أشهر، وهو شدة الحر، ويليه الخريف ثلاثة أشهر، ويليه الشتاء ثلاثة أشهر.

وهذه الآية صالحة للاصطلاحين.

واصطلاح علماء الميقات تقسيم السنة إلى ربيع، وصيف، وخريف، وشتاء، ومبدأ السنة الربيع هو دخول الشمس في برج الحمل، وهاتان الرحلتان هما رحلة تجارة وميرة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين من السنة إحداهما في الشتاء إلى بلاد الحبشة، ثم اليمن يبلغون بها بلاد حمير، والأخرى في الصيف إلى الشام يبلغون بها مدينة بصرى من بلاد الشام. ٣٠/٥٥٨

٦ـ **ومعنى الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم**؛ إذ يسر لهم ما لم يتأتَّ لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين، وغارات المغيرين في السنة كلها بما يسر لهم من بناء الكعبة، وشرعة الحج وأن جعلهم عُمَّار المسجد الحرام، وجعل لهم مهابةً وحرمةً في نفوس العرب كلهم في الأشهر الحرم وفي غيرها.

وعند القبائل التي تحرم الأشهر الحرم والقبائل التي لا تحرمها مثل طيء وقضاعة وخثعم، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحمِّلونهم سلعهم، وصارت مكة وسطاً تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية، فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة؛ إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع؛ إذ كانوا بواد غير ذي زرع، وكانوا يجلبون أقواتهم، فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بر، وشعير، وذرة، وزبيب، وأديم، وثياب، والسيوف اليمانية، ومن بلاد الشام الحبوب، والتمر، والزيت، والزبيب، والثياب، والسيوف المشرفية، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله ـتعالىـ: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾.

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن لله عليهم نعماً كثيرة؛ لأن هذا الإيلاف كان سبباً جامعاً لأهم النعم التي بها قوام بقائهم. ٣٠/٥٦٠

٧ـ **والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك** الشركاء معه في العبادة؛ لأن إشراك مَنْ لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة، أو لأنهم شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله؛ فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ٣٠/٥٦٠

سورة الماعون

١ ـ **سميت هذه السورة** في كثير من المصاحف وكتب التفسير (سورة الماعون) لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها.

وسميت في بعض التفاسير (سورة أرأيت) وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس، وكذلك عنونها في صحيح البخاري.

وعنونها ابن عطية بـ(سورة أرأيت الذي) وقال الكواشي في التلخيص: (سورة الماعون والدِّين وأرأيت) وفي الإتقان: وتسمى (سورة الدين) وفي حاشيتي الخفاجي وسعدي تسمى (سورة التكذيب) وقال البقاعي في نظم الدرر: تسمى (سورة اليتيم) وهذه ستة أسماء.

وهي مكية في قول الأكثر، وروي عن ابن عباس، وقال القرطبي عن قتادة: هي مدنية، وروي عن ابن عباس ـأيضاًـ وفي الإتقان: قيل: نزل ثلاثٌ أولها بمكة أي إلى قوله: ﴿ الْمِسْكِينِ ﴾ وبقيتها نزلت بالمدينة، أي بناء على أن قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ إلى آخر السورة أريد بها المنافقون، وهو مروي عن ابن عباس، وقاله هبة الله الضرير[١] وهو الأظهر.

وعدت السابعة عشرة في عداد نزول السور، بناءً على أنها مكية، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون.

وعدت آياتها ستاً عند معظم العادين: وحكى الآلوسي: أن الذين عدوا

---

١ ـ هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي أبو القاسم الضرير البغدادي المفسر له كتاب الناسخ والمنسوخ كانت له حلقة في جامع المنصور توفي سنة ٤١٠ (تاريخ بغداد ونكت الهميان).

آياتها ستاً أهل العراق ـأي البصرة والكوفة ـ وقال الشيخ علي النوري الصفاقسي في غيث النفع: «وآيها سبع حمصي ـأي شامي ـ وست في الباقي». وهذا يخالف ما قاله الآلوسي. ٥٦٣/٣٠ـ٥٦٤

٢ـ **أغراضها**: من مقاصدِها التعجيبُ مِنْ حالِ مَنْ كذَّبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم من الاعتداءِ على الضعيف واحتقارِه، والإمساكِ عن إطعام المسكين، والإعراضِ عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة؛ لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضبُ اللهِ وعقابه. ٥٦٤/٣٠

٣ـ وقوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ صفة للمصلين مقيدة لحكم الموصوف؛ فإن الويل للمصلي الساهي عن صلاته لا للمصلي على الإطلاق.

فيكون قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ترشيحاً للتهكم الواقع في إطلاق وصف المصلين عليهم.

وعُدي ﴿ سَاهُونَ ﴾ بحرف ﴿ عَنْ ﴾ لإفادة أنهم تجاوزوا إقامة صلاتهم، وتركوها، ولا علاقة لهذه الآية بأحكام السهو في الصلاة.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدون الصلاة إلا رياءً، فإذا خلوا تركوا الصلاة.

ويجوز أن يكون معناه: الذين يصلون دون نية وإخلاص؛ فهم في حالة الصلاة بمنزلة الساهي عما يفعل، فيكون إطلاق ﴿ سَاهُونَ ﴾ تهكماً كما قال ـتعالى ـ: ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ في المنافقين في سورة النساء.

ويراءون يقصدون أن يرى الناس أنهم على حال حسن وهم بخلافه؛ ليتحدث الناس لهم بمحاسن ما هم بموصوفين بها، ولذلك كثر أن تعطف السمعة على

الرياء فيقال: رياء وسمعة. ٣٠/٥٦٧ـ٥٦٨

٤ـ **والماعون**: يطلق على الإعانة بالمال، فالمعنى: يمنعون فضلهم، أو يمنعون الصدقة على الفقراء؛ فقد كانت الصدقة واجبة في صدر الإسلام بغير تعيين قبل مشروعية الزكاة.

وقال سعيد بن المسيب وابن شهاب: الماعون المال بلسان قريش.

وروى أشهب عن مالك: الماعون الزكاة: ويشهد له قول الراعي:

قوم على الإسلام لما يمنعوا ... ماعونهم ويضيعوا التهليلا

لأنه أراد بالتهليل الصلاة؛ فجمع بينها وبين الزكاة.

ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية، وآلات طبخ، وشد، وحفر، ونحو ذلك مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطاءه.

وعن عائشة: «الماعون الماء والنار والملح».

وهذا ذم لهم بمنتهى البخل، وهو الشح بما لا يزرئهم. ٣٠/٥٦٨

٥ـ واعلم أنه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقاً بشيء قبله جعل نظم الملحق مناسباً لما هو متصل به؛ فتكون الفاء للتفريع.

وهذه نكتة لم يسبق لنا إظهارها؛ فعليك بملاحظتها في كل ما ثبت أنه نزل من القرآن ملحقاً بشيء نزل قبله منه. ٣٠/٥٦٩

سورة الكوثر

١ـ **سميت هذه السورة** في جميع المصاحف التي رأيناها في جميع التفاسير ـأيضاًـ (سورة الكوثر) وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وعنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ولم يعدها في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم.

ونقل سعد الله الشهير بسعدي في حاشيته على تفسير البيضاوي عن البقاعي أنها تسمى (سورة النحر).

وهل هي مكية أو مدنية؟ تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضاً شديداً، فهي مكية عند الجمهور، واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتاب النشر قال: أجمع من نعرفه على أنها مكية، قال الخفاجي: «وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها».

وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة: هي مدنية، ويشهد لهم ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه، وقال: **أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، **قال: فإنه نهر وعَدَنِيهُ ربي ـ عز وجل ـ عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة**» الحديث.

وأنس أسلم في صدر الهجرة، فإذا كان لفظ (آنفاً) في كلام النبي ﷺ مستعملاً في ظاهر معناه وهو الزمن القريب ـ فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول

تلك الرؤيا.

ومقتضى ما يروى في تفسير قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أن تكون السورة مكية، ومقتضى ظاهر تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَانْحَرْ﴾ من أن النحر في الحج، أو يوم الأضحى تكون السورة مدنية، ويبعث على أن قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ليس رداً على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك.

والأظهر أن هذه السورة مدنية وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها.

وعلى القول **بأنها مكية عدوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور**، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر، وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية.

وعدد آيها ثلاث بالاتفاق.

وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، وأما في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها، ولكن كلماتها أكثر. ٣٠/٥٧١-٥٧٢

٢- **أغراضها**: اشتملت على بشارةِ النبيﷺ بأنه أعطي الخيرَ الكثيرَ في الدنيا والآخرة.

وأَمْرُهُ بأن يشكرَ اللهَ على ذلك بالإقبال على العبادة.

وأن ذلك هو الكمالُ الحقُّ لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة، وهم مغضوبٌ عليهم من الله -تعالى- لأنهم أبغضوا رسولَه، وغضبُ الله بَتْرٌ لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله.

وأن انقطاع الولد الذكر فليس بتراً؛ لأن ذلك لا أثر له في كمال الإنسان. ٣٠/٥٧٢

٣ـ **والكوثر**: اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالباً نحو الكوكب، والجورب، والحوشب والدوسر[١] ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع هنا فيها مادة الكَثْر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة، وهو أحسن ما فسر به وأضبطه، ونضيره: جوهر، بمعنى الشجاع كأنه يجاهر عدوه، والصومعة؛ لاشتقاقها من وصف أصمع وهو دقيق الأعضاء؛ لأن الصومعة دقيقة؛ لأن طولها أَفْرُط من غِلَظِها.

ويوصف الرجل صاحب الخير الكثير بكوثر من باب الوصف بالمصدر كما في قول لبيد في رثاء عوف بن الأحوص الأسدي:

وصاحبُ ملحوبٍ فُجِعنا بفقده ... وعند الرداع بيت آخر كوثر

(ملحوب والرداع) كلاهما ماء لبني أسد بن خزيمة، فوصف البيت بالكوثر، ولاحظ الكميت هذا في قوله في مدح عبدالملك بن مروان:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقايل كوثرا

وسمي نهر الجنة كوثراً كما في حديث مسلم عن أنس بن مالك المتقدم آنفاً.

وقد فسر السلف الكوثر في هذه الآية بتفاسير أعمها أنه الخير الكثير، وروي عن ابن عباس قال سعيد بن جبير: «فقلت لابن عباس: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير».

وعن عكرمة: الكوثر هنا: النبوءة والكتاب، وعن الحسن: هو القرآن، وعن

١ـ الجوارب: ثوب يجعل في صورة خف وتلف فيه الرجل؛ والحوشب: المنتفخ الجنبين وعظم في باطن الحافر، واسم للأرنب الذكر، والثعلب الذكر، والدوسر: الضخم الشديد.

المغيرة: أنه الإسلام، وعن أبي بكر بن عياش: هو كثرة الأمة، وحكى الماوردي: أنه رفعة الذكر، وأنه نور القلب، وأنه الشفاعة.

وكلام النبي ﷺ المروي في حديث أنس لا يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره. ٣٠/٥٧٢ـ٥٧٣

٤ـ وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر؛ إبطالاً لقولهم.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ اعتراض، والفاء للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربه عليها؛ فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته.

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء: إنه أبتر؛ فإن الصلاة لله شكر له، وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال ـتعالىـ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ لأنهم إنما نهوه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم، وكذلك النحر لله. ٣٠/٥٧٣ـ٥٧٤

سورة الكافرون

١ـ **عنونت هذه السورة** في المصاحف التي بأيدينا قديمها وحديثها، وفي معظم التفاسير (سورة الكافرون) بإضافة (سورة) إلى (الكافرون) وثبوت واو الرفع في (الْكَافِرُونَ) على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها.

ووقع في الكشاف، وتفسير ابن عطية، وحرز الأماني (سورة الكافرين) بياء الخفض في لفظ (الكافرين) بإضافة (سورة) إليه أن المراد سورة ذكر الكافرين، أو نداء الكافرين، وعنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه سورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾.

قال في الكشاف والإتقان: وتسمى هي وسورة (قل هو الله أحد) بالمقشقشتين؛ لأنهما تُقشقشان من الشرك أي تبرئان منه يقال: قشقش، إذا أزال المرض.

وتسمى ـأيضاًـ سورة الإخلاص؛ فيكون هذان الاسمان مشتركين بينها وبين سورة قل هو الله أحد.

وقد ذكر في سورة براءة أنّ سورة براءة تسمى المقشقشة؛ لأنها تقشقش، أي تبرئ من النفاق فيكون هذا مشتركاً بين السور الثلاث؛ فيحتاج إلى التمييز.

وقال سعد الله ـالمعروف بسعديـ عن جمال القراء: أنها تسمى (سورة العبادة) وفي بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي تسمى (سورة الدين).

وهي مكية بالاتفاق في حكاية ابن عطية وابن كثير، وروي عن ابن الزبير أنها مدنية.

وقد عدت الثامنة عشرة في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الماعون، وقبل

سورة الفيل.

وعدد آياتها ست. ٥٨٠_٥٧٩/٣٠

٢ـ **أغراضها**: وسبب نزولها ـ فيما حكاه الواحدي في أسباب النزول وابن إسحاق في السيرة ـ أن رسول الله ﷺ كان يطوف في الكعبة، فاعترضه الأسودُ ابن المطلب بنِ أسد، والوليدُ بنُ المغيرةِ، وأميةُ بنُ خلف، والعاصُ بنُ وائلٍ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد: هلم فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظه منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فقال: «**معاذ الله أن أشرك به غيره**».

فأنزل الله فيهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ السورة كلها، فغدا رسولُ الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأُ من قريشٍ، فقرأها عليهم، فيئسوا منه عند ذلك، وإنما عَرضوا عليه ذلك؛ لأنهم رأوا حِرْصَه على أن يؤمنوا؛ فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم.

وعن ابن عباس: «فيئسوا منه، وآذوه، وآذوا أصحابه».

وبهذا يُعْلَمُ الغرضُ الذي اشتملت عليه، وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال، وأن دينَ الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك. ٥٨٠/٣٠

٣ـ **والسور المفتتحة بالأمر بالقول خمس سور**: قل أوحي، وسورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوذتان؛ فالثلاث الأول لقول يبلِّغه، والمعوذتان لقول يقوله لتعويذ نفسه. ٥٨١/٣٠

سورة النصر

١ ـ سميت هذه السورة في كلام السلف (سورة إذا جاء نصر الله والفتح).

روى البخاري: «**أن عائشة قالت: لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح**» الحديث.

وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير (سورة النصر) لذكر نصر الله فيها، فسميت بالنصر المعهود عهداً ذِكْرياً.

وهي معنونة في جامع الترمذي (سورة الفتح) لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾.

وعن ابن مسعود أنها تسمى (سورة التوديع) في الإتقان، لما فيها من الإيماء إلى وداعه ﷺ اهـ.

يعني من الإشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى ـ كما سيأتي عن عائشة ـ.

وهي مدنية بالاتفاق. ٣٠/٥٨٧

٢ ـ ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة وعليه فالفتح مستقبل، ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبل ـأيضاًـ وهو الأليق باستعمال (إِذَا) ويحمل قول النبي ﷺ جاء نصر الله والفتح على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع؛ لتحقق وقوعه، أو لأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة. ٣٠/٥٨٧ـ٥٨٨

٣ ـ وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلاً أن هذه السورة تشتمل على إيماء إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها؛

إذ لا خلاف في أن هذا الإيماء يشير إلى توقيت مجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً، فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف. ٥٨٨/٣٠

٤ـ **وعدد آياتها ثلاث** وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدة كلمات، وأقصر من سورة العصر.

وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات، وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي[1] في حديث: «طُعن عمر بن الخطاب ﷺ فصلى عبدالرحمن ابن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ و﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾. ٥٨٩/٣٠

٥ـ **أغراضها**: والغرضُ منها الوعدُ بنصرٍ كاملٍ من عند الله أو بفتح مكة، والبشارةُ بدخول خلائقَ كثيرةٍ في الإسلام بفتحٍ، وبدونه إن كان نزولها عند مُنْصَرَفِ النبيِّ ﷺ من خيبر ـ كما قال ابن عباس في أحد قوليه ـ.

والإيماءُ إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقالُ رسولِ الله ﷺ إلى الآخرة.

ووعدُه بأن الله غَفَرَ له مغفرةً تامةً لا مؤاخذةَ عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسِه الخوف أن يكون منه تقصيرٌ يقتضيه تحديدُ القوةِ الإنسانية الحدّ الذي لا يفي بما تطلبه هِمتّه الملكيةُ بحيث يكون قد ساوى الحدَّ الملكي الذي وصفه الله ـ تعالى ـ في الملائكة بقوله ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾. ٥٨٩/٣٠

٦ـ **وقرن التسبيح بالحمد** بباء المصاحبة المقتضية أن التسبيح لاحق للحمد؛ لأن باء المصاحبة بمعنى (مع) فهي مثل (مع) في أنها تدخل على المتبوع فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام شيئاً مفروغاً منه

١ـ هكذا في الأصل، والصواب: السبيعي. (م).

لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه، لأن شأن الرسولﷺ أنه قد فعله، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته، وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره.

ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله ـتعالى ـ له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك؛ فإن سبحان الله ونحوه يستعمل في التعجب كقول الأعشى:

قد قلتُ لما جاءني فخرُه سبحان مَنْ علقمةَ الفاخِرِ

٥٩٤ـ٥٩٣/٣٠

٧ـ **وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيدٌ** لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه عن تعرضه الثناء

فإن رسول اللهﷺ لم يكن يخلو عن تسبيح الله، فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح، ودخول الأمة في الإسلام. ٥٩٤/٣٠

٨ـ والكلام من قبيل الكناية الرمزية، وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك.

وقد دل ذوقُ الكلام بعضَ ذوي الأفهام النافذة من الصحابة على هذا المعنى، وغاصت عليه مثل أبي بكر، وعمر، والعباس، وابنه عبدالله، وابن مسعود؛ فعن مقاتل: «لما نزلت قرأها النبيﷺ على أصحابه، ففرحوا، واستبشروا، وبكى العباس فقال له النبيﷺ : **ما يبكيك يا عم؟**

قال: نعيت إليك نفسك، فقال: **إنه لكما تقول**».

وفي رواية نزلت في منى فبكى عمر، والعباس؛ فقيل لهما، فقالا: فيه نعي رسول الله فقال النبي ﷺ: «**صدقتما نعيت إلي نفسي**».

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: «كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، فوجد بعضهم من ذلك، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه.

فقال: ما تقول يابن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه حضور أجله فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة موتك؟ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول» فهذا فهم عمر، والعباس، وعبدالله ابنه.

وقال في الكشاف: روي أنه لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: «**إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله عز وجل**».

فعلم أبو بكر فقال: «فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا» اهـ.

قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: «الحديث متفق عليه إلا صدره دون أوله من كونه كان عند نزول السورة» اهـ.

ويحتمل أن يكون بكاء أبي بكر تكرر مرتين: أولاهما عند نزول سورة النصر -كما في رواية الكشاف- والثانية عند خطبة النبي ﷺ في مرضه.

وعن ابن مسعود أن هذه السورة (تسمى سورة التوديع) أي لأنهم علموا أنها إيذان بقرب وفاة الرسول ﷺ. ٣٠/٥٩٤-٥٩٥

سورة المسد

١ـ **سميت هذه السورة** في أكثر المصاحف (سورة تبت) وكذلك عنونها الترمذي في جامعه، وفي أكثر كتب التفسير، تسمية لها بأول كلمة فيها.

وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير (سورة المسد) واقتصر في الإتقان على هذين.

وسماها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب، وعنونها أبو حيان في تفسيره (سورة اللهب) ولم أره لغيره.

وعنونها ابن العربي في أحكام القرآن (سورة ما كان من أبي لهب) وهو عنوان، وليس باسم.

وهي مكية بالاتفاق.

وعدت السادسة من السور نزولاً، نزلت بعد سورة الفاتحة، وقبل سورة التكوير.

وعدد آيها خمس.

روي أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة، وسبب نزولها على ما في الصحيحين عن ابن عباس قال: «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا، فنادى يا «**صباحاه**» ـكلمة ينادى بها للإنذار من عدو يصبح القومـ فاجتمعت إليه قريش، فقال: **إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد أرأيتم لو أني أخبرتكم أن العدو ممسيكم أو مصبحكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً**، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبت يدا أبي لهب».

ووقع في الصحيحين من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا» إلى آخر الحديث المتقدم.

ومعلوم أن آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء، وهي متأخرة النزول عن سورة تبت، وتأويل ذلك أن آية تشبه آية سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب؛ لما رواه أبو أسامة يبلغ ابن عباس لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين﴾ (ولم يقل من سورة الشعراء) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا؛ فتعين أن آية سورة الشعراء تشبه صدر الآية التي نزلت قبل نزول سورة أبي لهب. ٣٠/٥٩٩ـ٦٠٠

٢ـ **أغراضها**: زجرُ أبي لهبٍ على قوله: «تباً لك ألهذا جمعتنا؟» ووعيدُه على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضِها النبي ﷺ. ٣٠/٦٠٠

٣ـ **وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوك**؛ فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته؛ ليعقر قدميه.

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا، فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم؛ ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها. ٣٠/٦٠٥

سورة الإخلاص

١ـ المشهور في تسميتها في عهد النبي ﷺ وفيما جرى من لفظه وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتها (سورة قل هو الله أحد).

روى الترمذي عن أبي هريرة، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري، وعن أم كلثوم بنت عقبة أن رسول الله ﷺ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

وهو ظاهر في أنه أراد تسميتها بتلك الجملة؛ لأجل تأنيث الضمير من قوله تعدل فإنه على تأويلها بمعنى السورة.

وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك، فذلك هو الاسم الوارد في السنة.

ويؤخذ من حديث البخاري عن إبراهيم عن أبي سعيد الخدري ما يدل على أن رسول الله ﷺ قال: «**الله الواحد الصمد**» ثلث القرآن؛ فذكر ألفاظاً تخالف ما تقرأ به، ومحمله على إرادة التسمية.

وذكر القرطبي أن رجلاً لم يُسَمِّه قرأ كذلك، والناس يستمعون، وادعى أن ما قرأ به هو الصواب، وقد ذمه القرطبي وسبه.

وسميت في أكثر المصاحف، وفي معظم التفاسير، وفي جامع الترمذي (سورة الإخلاص) واشتهر هذا الاسم؛ لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة؛ لأن فيها تعليمَ الناس إخلاصَ العبادة لله ـتعالىـ أي سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية.

وسميت في بعض المصاحف التونسية سورة التوحيد؛ لأنها تشتمل على إثبات أنه -تعالى- واحد.

وفي الإتقان أنها تسمى سورة الأساس، لاشتمالها على توحيد الله، وهو أساس الإسلام.

وفي الكشاف: «روى أُبي، وأنس عن النبيﷺ :«أُسَّتْ السماوات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»[1].

يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته.

وذكر في الكشاف: أنها وسورة الكافرون **تسميان المقشقشتين**، أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق، وسماها البقاعي في نظم الدرر (سورة الصمد) وهو من الأسماء التي جمعها الفخر. ٦٠٩/٣٠-٦١٠

٢- وهي مكية في قول الجمهور، وقال قتادة، والضحاك، والسدي، وأبو العالية، والقرظي: هي مدنية، ونسب كلا القولين إلى ابن عباس. ٦١١/٣٠

٣- وعلى الأصح من أنها مكية، عدت السورة الثانية والعشرون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الناس، وقبل سورة النجم.

وآياتها عند أهل العدد بالمدينة، والكوفة، والبصرة أربع، وعند أهل مكة، والشام خمس باعتبار ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ آية. ٦١١/٣٠-٦١٢

٤- **أغراضها**: إثباتُ وحدانية الله -تعالى-.

وأنه لا يُقْصَدُ في الحوائجِ غيرُه، وتنزيهُه عن سماتِ المحدثاتِ، وإبطالُ أن يكونَ له ابنٌ.

١- يقال أسَّ البناءَ إذا أقامه، وفي نسخة أُسست، وهذا الحديث ضعيف.

وإبطالُ أن يكونَ المولودُ إلهاً مثل عيسى ـ عليه السلام ـ.

والأحاديثُ في فضائلها كثيرةٌ وقد صح أنها تعدل ثُلُثَ القرآنِ، وتأويلُ هذا الحديثِ مذكورٌ في شرح الموطأ والصحيحين. ٦١٢/٣٠

٥ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعنى: أن الله منفرد بالإلهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات، وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك، وللتثليث الذي أحدثه النصارى الملكانية، وللثانوية عند المجوس، وللعدد الذي لا يحصى عند البراهمة.

فقوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نظير قوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

وهذا هو المعنى الذي يدركه المخاطبون بهذه الآية السائلون عن نسبة الله، أي حقيقته؛ فابتدئ لهم بأنه واحد؛ ليعلموا أن الأصنام ليست من الإلهية في شيء.

ثم أن الأحدية تقتضي الوجود لا محالة، فبطل قول المعطلة والدهريين. ٦١٥/٣٠ـ٦١٦

٦ـ **فالصمد من الأسماء التسعة والتسعين** في حديث أبي هريرة عند الترمذي، ومعناه: المفتقر إليه كل ما عداه؛ فالمعدوم مفتقر وجوده إليه، والموجود مفتقر في شؤونه إليه.

وقد كثرت عبارات المفسرين من السلف في معنى الصمد، وكلها مندرجة تحت هذا المعنى الجامع، وقد أنهاها فخر الدين إلى ثمانية عشر قولاً.

ويشمل هذا الاسم صفات الله المعنوية الإضافية وهي كونه ـتعالى ـ حياً، عالماً، مريداً، قادراً، متكلماً، سميعاً، بصيراً؛ لأنه لو انتفى عنه أحد هذه الصفات لم يكن مصموداً إليه. ٦١٧/٣٠

٧ـ وقد وردت في فضل هذه السورة أخبار صحيحة وحسنة استوفاها المفسرون، وثبت في الحديث الصحيح في الموطأ والصحيحين من طرق عدة: أن رسول الله ﷺ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

واختلفت التأويلات التي تأول بها أصحاب معاني الآثار بهذا الحديث، ويجمعها أربع تأويلات:

الأول: أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة، أي تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها حتى لو كررها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله.

الثاني: أنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.

الثالث: أنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني؛ لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد، وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية ما لم يجمعه غيرها.

وأقول: إن ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل آية الكرسي، أو لأنه لا توجد سورة واحدة جامعة لما في سورة الإخلاص.

التأويل الرابع: أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب مثل التأويل الأول، ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة.

قال ابن رشد في البيان والتحصيل(١): «أجمع العلماء على أن من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات لا يساوي في الأجر من أحيا بالقرآن كله» اهـ.

فيكون هذا التأويل قيداً للتأويل الأول، ولكن في حكايته الإجماع على أن ذلك هو المراد نظر؛ فإن في بعض الأحاديث ما هو صريح في أن تكريرها ثلاث

١ـ في سماع ابن القاسم عن مالك من كتاب الصلاة الثاني.

مرات يعدل قراءة ختمة كاملة.

قال ابن رشد: «واختلافهم في تأويل الحديث لا يرتفع بشيء منه عن الحديث الإشكال، ولا يتخلص عن أن يكون فيه اعتراض».

وقال أبو عمر بن عبدالبر: «السكوت على هذه المسألة أفضل من الكلام فيها». ٣٠/٦٢٠-٦٢١

سورة الفلق

١ ـ سمى النبيﷺ هذه السورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

روى النسائي عن عقبة بن عامر قال: «اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود، وسورة يوسف، فقال: «**لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من «قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس**».

وهذا ظاهر في أنه أراد سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ لأنه كان جواباً على قول عقبة: أقرئني سورة هود الخ، ولأنه عطف على قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ولم يتم سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

عنونها البخاري في صحيحه (سورة قل أعوذ برب الفلق) بإضافة سورة إلى أول جملة منها.

وجاء في كلام بعض الصحابة تسميتها مع سورة الناس (المعوذتين) روى أبو داود، والترمذي، وأحمد عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول اللهﷺ أن أقرأ بالمعِّوذات ـ بكسر الواو المشددة، وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات، أي آيات السورتين ـ وفي رواية «بالمعوذتين في دبر كل صلاة».

ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوذة بالإفراد.

وقد سماها ابن عطية سورة المعوذة الأولى؛ فإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة المسمى إلى الاسم، ووصف السورة بذلك مجاز يجعلها كالذي يدل الخائف

على المكان الذي يعصمه من مخيفه، أو كالذي يدخله المعاذ.

وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير (سورة الفلق).

وفي الإتقان: «أنها وسورة الناس تسميان (المشقشقتين) -بتقديم الشينين على القافين- من قولهم خطيب مشقشق» اهـ.

أي مسترسل القول، تشبيهاً له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة، وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب، ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك.

وفي تفسير القرطبي، والكشاف أنها وسورة الناس تسميان (المقشقشتين) -بتقديم القاف على الشينين-.

زاد القرطبي: «أي تبرئان من النفاق».

وكذلك قال الطيبي؛ فيكون اسم المقشقشة مشتركاً بين أربع سور هذه، وسورة الناس، وسورة براءة، وسورة الكافرون. ٣٠/٦٢٣-٦٢٤

٢- **والأصح أنها مكية**؛ لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس، ففيها متكلم. ٣٠/٦٢٤

٣- **وقال الواحدي**: قال المفسرون: «إنها نزلت بسبب أن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ».

وليس في الصحاح أنها نزلت بهذا السبب، وبنى صاحب الإتقان عليه ترجيح أن السورة مدنية، وسنتكلم على قصة لبيد بن الأعصم عند قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وقد قيل: إن سبب نزولها والسورة بعدها: أن قريشاً ندبوا، أي ندبوا من اشتهر بينهم أنه يصيب النبي ﷺ بعينه؛ فأنزل الله المعوذتين، ليتعوذ منهم بهما،

ذكره الفخر عن سعيد بن المسيب، ولم يسنده.

وعدت العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الفيل، وقبل سورة الناس.

وعدد آياتها خمس بالاتفاق.

واشتهر عن عبدالله بن مسعود في الصحيح أنه كان ينكر أن تكون (المعوذتان) من القرآن ويقول: إنما أمر رسول الله أن يتعوذ بهما، أي ولم يؤمر بأنهما من القرآن، وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على القراءة بهما في الصلاة وكتبتا في مصاحفهم، وصح أن النبي ﷺ قرأ بهما في صلاته. ٣٠/٦٢٤-٦٢٥

٤- **أغراضها**: والغرضُ منها تعليمُ النبيِّ ﷺ كلماتٍ للتعوذ بالله من شر ما يُتَّقَى شرُّه من المخلوقات الشريرة، والأوقاتِ التي يكثر فيها حدوثُ الشر، والأحوالِ التي يستر أفعال الشر من ورائها؛ لئلا يرمى فَاعِلوها بِتَبِعاتها؛ فعلَّم الله نبيه هذه المعوذة؛ ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبيَّ ﷺ كان يتعوذُ بهذه السورةِ وأختِها، ويأمر أصحابَه بالتعوذ بهما؛ فكان التعوذُ بهما مِنْ سُنَّةِ المسلمين. ٣٠/٦٢٥

٥- **والفلق**: الصبح، وهو فَعَلَ بمعنى مفعول مثل الصَّمَد؛ لأن الليل شبه بشيء مُغْلَقُ ينفلق عن الصبح، وحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل. ٣٠/٦٢٦

٦- **ورب الفلق**: هو الله؛ لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح.

وتخصيصُ وصفِ الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شراً كثيراً يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذرِ السير، وعسرِ النجدة،

وبعدِ الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح منجاةً من شرور الليل؛ فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجي أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح؛ فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة. ٦٢٦/٣٠

٧ـ **والغاسق**: وصف الليل إذا اشتدت ظلمته يقال: غسق الليل يغسق، إذا أظلم قال ـتعالىـ: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفه مثل الجواري في قوله ـتعالىـ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ﴾ وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ للجنس؛ لأن المراد جنس الليل.

وتنكير ﴿غَاسِقٍ﴾ في مقام الدعاء يراد به العموم؛ لأن مقام الدعاء يناسب التعميم. ٦٢٧/٣٠

٨ـ وتقييد ذلك بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي إذا اشتد ظلمته؛ لأن ذلك وقت يتحيَّنه الشُّطار، وأصحاب الدعارة والعيث؛ لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه، يقال: أغدر الليل؛ لأنه إذا اشتد ظلامه كثر الغدر فيه، فعبر عن ذلك بأنه أغدر، أي صار ذا غدر على طريق المجاز العقلي. ٦٢٧/٣٠

٩ـ **فالمراد بـ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾**: النساء الساحرات، وإنما جيء بصفة المؤنث؛ لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء؛ لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام، والماء، والنظافة؛ فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهن، ونحو ذلك؛ فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن. ٦٢٨/٣٠

١٠ـ **والعقد**: جمع عقدة وهي ربط في خيط، أو وتر يزعم السحرة أنه سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقدة معقودة، ولذلك يخافون من حلها؛ فيدفنونها أو يخبئونها في محل لا يُهتدى إليه.

أمر الله رسولهﷺ بالاستعاذة من شر السحرة؛ لأنه ضمن له أن لا يلحقه شر السحرة، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنه مسحور، قال ـتعالىـ: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾. ٦٢٨/٣٠

١١ـ **والحسد**: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيره على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها.

وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً.

والغبطة: تمني المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح: «**لا حسد إلا في اثنتين**» أي لا غبطة، أي لا تحقق الغبطة إلا في تينك الخصلتين.

وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين.

وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته؛ فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً.

وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا، إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه ولم يقبل قربان الآخر، كما قصه الله ـتعالىـ في سورة العقود. ٦٢٩/٣٠ـ٦٣٠

سورة النـاس

١ـ تقدم عند تفسير أول سورة الفلق أن النبيﷺ سمى سورة الناس (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ).

وتقدم في سورة الفلق أنها وسورة الناس تسميان (المعوذتين) و(المشقشقتين) بتقديم الشينين على القافين، وتقدم ـأيضاًـ أن الزمخشري والقرطبي ذكرا أنهما تسميان (المقشقشتين) بتقديم القافين على الشينين، وعنونها ابن عطية في المحرر الوجيز (سورة المعوذة الثانية) بإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وعنونهما الترمذي (المعوذتين) وعنونها البخاري في صحيحه (سورة قل أعوذ برب الناس).

وفي مصاحفنا القديمة، والحديثة المغربية والمشرقية تسمية هذه السورة (سورة الناس) وكذلك أكثر كتب التفسير.

وهي مكية في قول الذين قالوا في سورة الفلق: إنها مكية، ومدنية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مدنية.

والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين؛ فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى.

وقال في الإتقان: أن سبب نزولها قصة سحر لبيد بن الأعصم، وأنها نزلت مع (سورة الفلق) وقد سبقه إلى ذلك القرطبي والواحدي، وقد علمت تزييفه في سورة الفلق.

وعلى الصحيح من أنها مكية فقد عدت الحادية والعشرين من السور، نزلت

عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص.

وعدد آيها ست آيات، وذكر في الإتقان قولاً: إنها سبع آيات وليس معزواً لأهل العدد. ٣٠/٦٣١-٦٣٢

٢- **أغراضها**: إرشادُ النبيِّ ﷺ لأن يَتَعَوَّذَ بالله ربِّه من شرِّ الوسواس الذي يحاول إفسادَ عملِ النبي ﷺ وإفسادَ إرشادِه الناسَ، ويلقي في نفوس الناسِ الإعراضَ عن دعوته.

وفي هذا الأمرِ إيماءٌ إلى أن الله -تعالى- معيذُه من ذلك، فَعَاصِمُه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعمَّ في الناس.

ويتبع ذلك تعليمُ المسلمين التعوذَ بذلك؛ فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظُّهم من قابلية التعرضِ إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى. ٣٠/٦٣٢

٣- **شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق** إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين. ٣٠/٦٣٢

٤- **والخناس**: الشديد الخنس، والكثيرة، والمراد أنه صار عادة له، والخنس والخنوس: الاختفاء.

والشيطان يلقب بـ﴿الْخَنَّاسِ﴾ لأنه يتصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه، فكأنه خنس فيه، وأهل المكر والكيد والتختل خناسون؛ لأنهم يتحينون غفلات الناس، ويتسترون بأنواع الحيل، لكيلا يشعر الناس بهم. ٣٠/٦٣٤

٥ـ **وأما تكريره المرة الرابعة بقوله:** ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صَدَق كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في المرّات السابقة.

والله يكفينا شر الفريقين، وينفعنا بصالح الثقلين.

تم تفسير (سورة الناس) وبه تم تفسير القرآن العظيم.

يقول محمد الطاهر ابن عاشور: قد وفيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت، فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن، ودقائق نظامه، وخصائص بلاغته، مما اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زند لإنارة الفكر وإلهاب الهمة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما جلت وجوهاً ولم تَجْلُ كُنْهاً؛ فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه[1].

وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يخدم سعياً على الرأس، وما أدى هذا الحق إلا قلم المفسر يسعى على القرطاس، وإن قلمي طالما استن بشوط فسيح، وكم زجر عند الكَلاَلِ والإعياء زَجْر المَنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حَقَّ له أن يستريح.

وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف، فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وهي حِقْبَةٌ لم تَخْلُ من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازعَ بقريحة شاربة

١ـ تضمين لمصراع بيت المعرى:

برومك والجوزاء دون مرامه ... عدوٌّ بعيب البدر عند تمامه

طوراً وطوراً غارفة، وما خلا ذلك من تشتت بال، وتطور أحوال، مما لم تَخلُ عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله، فإن نعمه أوفى، ومكاييل فضله علي لا تطفَّفُ ولا تُكْفا.

وأرجو منه -تعالى- لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور.

وكان تمامه بمنزلي ببلد المرسى شرقي مدينة تونس، وكتب محمد الطاهر ابن عاشور. ٣٠/٦٣٦-٦٣٧